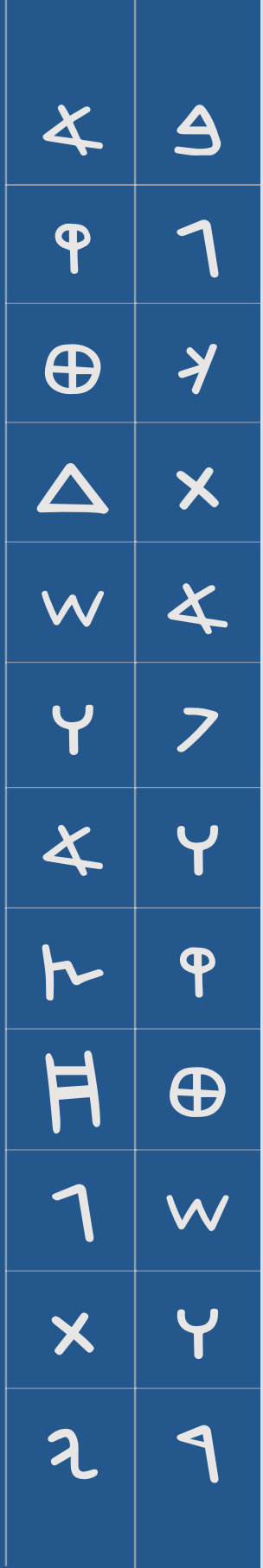

Letters from Byblos
رقم ٢٨

دارينا صليبا ابي شديد (تحرير)

اللّغة والترجمة:
سياقات عبر الثقافات

بيبلوس
٢٠٢٤

رسالة من بيبلوس

اللّغة والترجمة: سياقات عبر الثقافات

رقم ٢٨

تحرير

الدكتورة دارينا صليبا أبي شديد

بيبلوس

٢٠٢٤

إن الآراء المعبّر عنها في هذا الكتاب هي آراء الباحثين ولا تلزم بأي شكل من الأشكال المركز الدولي لعلوم الإنسان.

جميع الحقوق محفوظة. طبع في لبنان. إن كل استنساخ كامل أو جزئي لهذا المنشور، الكترونيًا أو ميكانيكيًا أو تصويرياً أو تسجيلياً كان، يستوجب إذناً خطياً من المركز.

جميع الحقوق محفوظة©٢٠٢٤
ISBN: 978-9953-9032-8-6

P.O. Box 225
www.cish-byblos.org

خضع هذا العمل العلمي لعملية مراجعة وتقييم النظراء من قبل مجموعة من الباحثين المراجعين.

قائمة المحتويات

بلى: الترجمةُ عملٌ إبداعيٌّ
هنري زغيب ..... ص. ٤

جبران خليل جبران، المرأة والموسيقى
نادين نجم ..... ص. ١٢

اللّغة العربيّة زمن العولمة والتّكنولوجيا قراءة في التّحدّيات والرّؤى
د.سلمى عطاالله، أستاذة مشاركة.....ص.١٨

الأمانة والجمال في الترجمة الأدبيّة والترجمة الفوريّة بين الممكن والمستحيل
الدكتورة باميلا عموري معلوف ..... ص. ٥١

بلى: الترجمةُ عملٌ إبداعيٌّ

هنري زغيب

لأَننا في مؤْتمر خاص بالترجمة، سأَقتصر في مداخلتي على تجربتي في الترجمة، مقطوفةً من تمرُّسي فيها على مرحلتَين: أُولى في سبعينات القرن الماضي، إذ كنتُ بين ١٩٧٢ و١٩٧٥ مدير "منشورات عويدات" (بيروت)، وتسنَّى لي أَن أُترجم وأَن أُراجع أَو أُعيد صياغة ترجمات سواي، ما شكَّل فترتئذٍ نحو ٣٥ كتابًا، وكان على عظيمِ فائدةٍ لي في الصَوغ والتنقيح وبلاغة الإيجاز. والمرحلة الأُخرى، منذ أَربع سنوات إلى اليوم، تسنى لي خلالها أَن أَعمل على صياغة ثلاث ترجمات ذاتِ علاقة بجبران. الأُولى: ترجمتي كتاب "هذا الرجل من لبنان" للشاعرة الأَميركية باربرة يونغ (وهي سيرة جبران على طريقتها الهاجيوغرافية)، والثانية ترجمة مسرحيتَين لجبران ("لِعازر وحبيبتُه" و"الأَعمى")، والثالثة الحديثة هي صياغتي ترجمةً جديدةً لـ"نبي" جبران".

الترجمةُ خبرةٌ تَتَنَامى

بعد مزاولتي الترجمة منذ أكثر من نصف قرن - تحديدًا منذ سنة ١٩٧٢ - بات يمكنني تكوينُ مبادئ عامة لهذا العمل الإبداعي في ذاته، رافضًا مقولة أن في كل ترجمةٍ خيانةً للأصل.

في هذا السياق، أُشدِّد على أَن ترجمة النص لا تكتفي بنقل أصله إلى اللغة الجديدة، بل يجب نقل الروح والأسلوب مع المضمون. فترجمة الشعر غيرُها في الرواية أَو المقالة أَو البحث أَو الدراسة. من هنا يأْتي دور المترجم أَوَّلًا في نقْل الفكر فالفكرة التي تترجِم الفكر، ومن ثَمَّ ينتقل إلى تنصيع لغته حتى توازي بنسيجها التأْليفي لغةَ النص الأَصلية.

وهذا ما سأُوضحه تفصيلًا من خلال تجربتي في الترجمة (من الفرنسية والإنكليزية إلى العربية) مع ما فيها من إشكالات وإشكاليات و... شكليات.

أَقتطف لهذا المؤْتمر اليوم بعضَ ما عاينتُهُ في صياغتي ترجمة "النبيّ"، لعلَّ فيها ما ينتقلُ من الخاص إلى العام فتنعمَّم ثمراتُ هذه التجربة على السوى كذلك.

مقاربة "النبي"

في بداية ترجمتي "النبي" تساءَلْتُ بمنطق سواي: "ترجمة جديدة؟ لِـمَ؟ أَيُّ إِضافةٍ فيها عن شقيقاتٍ لها سابقات"؟

لم يؤَرِّقْني هذا التساؤُل وأَنا في غمرة اشتغالي على هذه الترجمة. فالنصُّ المترجَم ليس ابنَ حقيقةٍ علمية راسخة جامدة ثابتة لا حيادَ عن صوابيَّتها، بل هو وليدُ احتمالات في النص الأَصلي يتَّسع لها النص المنقول إِلى اللغة الجديدة، خصوصًا حين هذه تكون، كالعربية، لغةً

غنية بالمفردات والمرادفات والتورية والمجازات والاستعارات، وهذا يغْني المترجم حين هو متمكِّنٌ من لغته الأُم ومن لغة النص الأَصلي، فيُعطيه فسحةَ انطلاقٍ لا تتحدَّد بالـحَرْفيّ ولا تَجنح إِلى خيانة الأَصل. من هنا اعتباري أَنَّ الترجمة ليست "ماذا نترجم" بل "كيف نترجم ماذا".

لا أَذكر ذلك لأُنَظِّرَ في الترجمة فَأَضعَ لها قواعدَ أَو نُظُمًا، بل لأَبسُطَ تجربتي الشخصية إِبان اشتغالي على نصِّ "النبي". وهذه التجربة أَنضَجها عمرٌ طويل بلغَ نصفَ قرنٍ من التعاطي مع ترجمتي عددًا كبيرًا من الكتُب، ومراجعتي، تنقيحًا وتصويبًا، عددًا آخَر من ترجمات السوى، ما مكَّنني من تنصيع أُسلوبي وصقْله وتنقِيَةِ ما فيه من غبار وثرثرة وتراكيب عتيقة مكرَّرة، بلوغًا إِلى الإِيجاز البليغ فيضيْءُ لائقًا بلغة العصر الحديثة، ضمن احترامٍ كاملٍ أُصولَ اللغة ونُظُمَها وقواعدَها.

الترجمة في ثلاث مراحل

ترجمتي "النبيَّ" مرَّت في مراحلَ ثلاثٍ:

١. ترجمةُ المعنى: نقْلًا أَمينًا "مضمونَ" النص، لا شكلَه ولا أُسلوبَه.

٢. الدخولُ إِلى معنى المعنى: وهو اختراق حجُب الكلمات بلوغًا مدلولَها الداخلي، عمقَها الآخَر. وفي هذا الدخول ترجمةُ فكْرِ جبران لا نصِّه، أَي خدمةُ أَفكارِهِ لا لغتِه. فهو شاعر في نثره الجميل، ولا يجوز نقْل شاعريته في ظاهرها بل في ما يرمز بها من معتقداتٍ لأَجلها أَو لأَجل أَكثرها وضَع هذا الكتاب. فالسفينة في الكتاب رمز، والبحر رمز، وجزيرة مولده رمز، وأُورفليس رمز، والميترا رمز،... ومن يعرفُ إِيمان جبران بالتقمُّص ودورات الحياة المتتالية التي يُلْمِحُ إِليها، يسْهل عليه اكتناهُ تلك الرموز وسواها في الكتاب. من هنا وجبَ أَن يكون النصُّ المنقولُ على المستوى الأَقرب إِلى تلك الشاعرية الجبرانية. وهذا هو الدخول إِلى معنى المعنى[١]. فالترجمةُ الحرفية غالبًا ما تكون كاريكاتورية في مؤَدَّاها حين تَنقُلُ حتى الصياغةَ من اللغة الأَصلية. الترجمة تنقُل فكرةَ كاتبِها لا أُسلوبَه ولا صياغتَه.

٣. تنصيع اللغة والأُسلوب: بعد هاتَين المرحلتَين الأُولَيَيْن (الأَمانة في نقْل المعنى، والدخول إِلى معنى المعنى) وبعد إِيفائي جبران حقَّه في إِيصال فكره إِلى القارئ، كنتُ أُغلق نص جبران الإِنكليزي، وأَعمل على نصِّيَ العربي صقْلًا وتنصيعًا دون أَيِّ ابتعادٍ عن الأَصل، معتبرًا أَني نقلتُ مضمونَه بالإِنكليزية وبات الأُسلوبُ بالعربية من مسؤُوليتي، لأَن ترجمة

[١] أَفضلُ من تبَسَّط في مفهوم معنى المعنى: عبدالقاهر الجرجاني (١٠٠٩-١٠٧٨) في كتابه "دلائل الإعجاز" (فصل "دلالة المعنى على المعنى"). ولاحقًا تناول الموضوعَ الناقدُ البريطاني آيڤور آرمسترونغ ريتشاردز (١٨٩٣-١٩٧٩) في كتابه الشهير The meaning of meaning "معنى المعنى" (I.A. Richards1923)

الأُسلوب الجبراني الأَصلي، كما هو، يفكّك نصَّه الإنكليزي إلى خلل واضح في العربية. لكل لغة عبقريتُها الخاصة. وإذا تستحيل ترجمةُ عبقريةِ اللغة الأَصلية، فمن الضروري الترجمةُ بعبقرية اللغة الجديدة. من هنا، في هذه المرحلة الثالثة، أَمام نصِّي العربيّ دون جواره الإنكليزي، لا تعود الكلماتُ حروفًا أَمامي بل مَلامسَ پـيانو أَصوغُ بها أَنغامًا أَسمعها وأَنا أَتنقَّل من سطر إلى سطر، أُزغردُها بما يفي جبران معناه ويرضي مبناي.

انزياحٌ في الترجمة

بعد اشتغالي على هذه المراحل الثلاث، ولأَجل أَمانةٍ متشدِّدة عند بدء ترجمتي "النبي"[٢]، تعمَّدْتُ أَلَّا أَطَّلع على أَيِّ ترجمةٍ سابقة، كي لا أَكون متأَثرًا بأَيِّ صيغةٍ لسواي، مع إدراكي رصانةَ مَن ترجموه قبلي، وأَنني قد أَلتقي معهم ببعض المفردات، وربما أُنائي عنهم في أَكثرها.

مناسبةُ اتخاذي هذا القرار: عبارةٌ أَذكُر أَنها صدَمَتْني قبل سنواتٍ طويلة حين كنتُ أَقرأُ في ترجمة الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير كتابَ "النبي"، وصادفتُ في فصل "العطاء" عبارة "لأَنه أَيُّ صحراء أَعظم من الصحراء ذات الجرأَة والجسارة على قبول العطيَّة بما فيها الفضل والمنة"؟

وإذ لم أَفهم الجملة، عدتُ إلى الأَصل الإنكليزي لأَفهم قصْد جبران، فقرأْتُ:

And what desert greater shall there be, than that which lies in the courage and the confidence, nay the charity, of receiving

وإذا بي أَفهم أَن الأَرشمندريت بشير أَشكلَت عليه كلمة Desert فترجمها "الصحراء" (وهي صحيحة إنما لا في هذا السياق) بينما جبران يقصد "الاستحقاق"، لأَن كلمة Desert هي الاسم من فعل Deserve أَي استَحَقَّ.

هذا هو الهدف من الدخول إلى معنى المعنى في السياق الأَصلي، لذا ترجمتُ العبارة كما يلي: "وما الأَنبلُ من استحقاقٍ فيه جرأَةٌ وثقةٌ وحتى إحسانٌ بقبوله"؟

قلتُ إن العبارة يومَها، قبل سنوات، صدَمَتْني. والسبب أَن جبران، في أَكثر من رسالة كان تبادَلَها مع الأَرشمندريت، امتدَح ترجمتَه معتبرًا أَنه "نقَلَ روح" جبران في الكتاب. وكان جبران، قبل شُروع الأَرشمندريت في الترجمة، كتَبَ إليه في رسالة ٢٣ كانون

[٢] الطبعة الأُولى، وعلى غلافها: "النبي" لجبران خليل جبران وضَعَه باللغة الإنكليزية وقد ترجمَه إلى العربية الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير - عُنِيَ بنشْره يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بالفجالة بمصر - الطبعة الأُولى ١٩٢٦ - جميع الحقوق محفوظة للمُعرِّب - المطبعة الرحمانية بمصر". وفي صدر الغلاف هذه العبارة: "إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير العميق. فإن كنتَ تخاف أَن تُفكِّر فالأَجدر بكَ أَلَّا تقرأَ جبران ".

الثاني ١٩٢٥: "... أَما بشأْن ترجمة النبي إلى اللغة العربية، فَلَكَ أَن تفعل ذلك إن شئْتَ. أَنتَ تعلم أَن هذا الكتاب الصغير هو جزء من حشاشتي، فلم أُدوِّن فصلًا من فصوله إلَّا وشعرتُ بتغييرٍ في أَعماق روحي. لذلك أَطلبُ إليكَ، بل أَستعطفُكَ، أَن تَهبَه من بستان عنايتكَ فسحةً واسعة...". وفي مكانٍ آخَر من الرسالة ذاتِها كتب: "... هذا وإني أَرجوكَ أَن تبعثَ إليَّ ترجمتَك الفصلَ بعد الفصل إن شئْتَ، فنتعاون بهذه الواسطة على كلِّ ما فيه خيرٌ لكَ ولي وللكتاب".

من العجَب إذًا أَن يكون جبران راجع ترجمة الأَرشمندريت "فصلًا بعد فصل" ولم تستوقفْه عبارة "أَيُّ صحراء أَعظم من الصحراء" في فصل "العطاء"، فيما ليس في نص جبران أَيُّ علاقة مع الصحراء.

لعلَّ الجواب في ما ذكَرَتْه باربرة يونغ في كتابها "هذا الرجل من لبنان" عن أَن جبران، بعد انتشار "النبي" وتَوَسُّع شهرته في الولايات المتحدة وفي لغات سائر البلدان التي تُرجِمَ إليها الكتاب، لم يَعُد يولي الترجمات العربية اهتمامًا خاصًّا، حتى أَنه قال لها: "أَيًّا تكُن الترجمة ستظلُّ فيها روحي". وهي العبارةُ ذاتُها التي كان بادرها بها أَيضًا عند ترجمة إندرو غَرِيب إلى الإنكليزية نصوصًا لجبران بالعربية. من هنا قد يكون جبران مرَّ على ترجمة الأَرشمندريت دون كثيرِ تدقيقٍ، ما تَرك نُدُوبًا في الترجمة كما كلمة "صحراء" عوض "الاستحقاق".

المصطفى من دون المختار

في سياق ترجمة الفكرة لا الكلمة، حذفْتُ في ترجمتي كلمة "المختار" من مطلع الفصل الأَول ("وُصُول السفينة")، لأَن كلمة Chosen في نص جبران تُفسِّرُها تلقائيًّا كلمة "المصطفى". وهو أَردفَها بـ"المختار" كي يَشرحَ كلمة "المصطفى" لقراء الإنكليزية فهي غريبة عنهم. لذا عند ترجمتي لم أَجِد ضرورةً أَن أَشرح لقراء العربية كلمة "المصطفى" بـ"المختار"، فمضيتُ مباشرة إلى "المصطفى الحبيب" من دون كلمة "المختار".

الحب لا المحبة

في السياق ذاته راجَت في الأَوساط العربية، نصوصًا منشورةً وغناءً بصوت الخالدة فيروز، كلمةُ "المحبة" (في الفصل الثاني من الكتاب)، وفيها ابتعادٌ واضح عن فكرة جبران الذي يقصد "الحب" لا "المحبة". فالمحبة طوباوية إنسانية حَنون، فيما جبران يقصد ذاك الذي "يومَ يَندَهُكُمُ انقادوا لَه، ولو انَّ دروبَه وعْرةٌ شائكة... ويوم يَغمُرُكُم بِجناحَيه استسلِموا إليه، ولو انَّ السيف بين ريشِهما قد يجرَحُكُم"... وهذا ما لا تفعله المحبة بل هو الحب الذي بكل عَصْفِه "... يومَ يُخاطبُكُم آمِنُوا به، ولو شتَّتَ أَحلامَكُم صوتُهُ كما ريحُ الشَمال تعبث

بالحديقة". وهنا، أَيضًا وأَيضًا، الفارقُ بين ترجمة المعنى والدخول إلى معنى المعنى.

في مفهوم الإله الشُمولي

أَبقى في السياق أَيضًا، وأَصل إلى كلمة God في الكتاب: راجَت في النصوصِ العربيةِ المترجَمَةِ، منشورةً ومُغَنَّاةً، كلمةُ "الله"، وهي صحيحة في المطلق دينًا ومعتقَدًا. غير أَنها لا تنطبق إِلَّا على المؤْمنين بأَديان محدَّدة، أَخصُّها الدياناتُ الإبراهيميةُ الثلاث، ولا تشمل مَن عباداتُهم تناجي أُلوهيات أُخرى. من هنا استعملتُ كلمة "الإله" لشموليتها إيمانًا ("نؤْمن بإله واحدٍ آبٍ ضابطِ الكل"، و"لا إله إِلَّا الله")، ومعتقداتٍ مختلفةً (لشعوبٍ متعددة في أَصقاع أُخرى من العالم) وميثولوجياتٍ (فيها طبيعيٌّ تَعَدُّدُ الآلهة). وجبران، في إيمانه بالعالَم الواحد والإنسان الكوني والحقيقة الأَزلية ووحدة العلاقة الشاملة المترابطة بين جميع الأَديان، إنما يرمي إلى "الإله" في معنى الأُلوهة المطلَق.

بين الجمع والمفرد

وردَ في جميع النصوص ضمير You وهو بالإنكليزية يعني "أَنتَ" و"أَنتِ" و"أَنتُما" و"أَنتم" و"أَنتُنَّ". وجبران في جميع فصول الكتاب يُجيب عن أَسئلة السائلين بضمير You، فلا يظهر منه إِلَّا في السياق العام إن كان يتوجَّه إفراديًّا إلى السائل أَو السائلة أَو جَماعيًّا إلى الجمْع أَمامه. من هنا استعملتُ، وفْق سياق النص، ضمير المخاطَب المفرد مراتٍ، وضمير المخاطَب الجمْع مرات أُخرى.

في لغة الكتاب وزمانها

وضَع جبران كتابَه في العقد الثاني من القرن العشرين، والعالَم خارجٌ حديثًا من ويلات الحرب العالمية الأُولى وما صاحبَها من نكَباتٍ ومآسٍ وفواجعَ جعلَت الناس في يأْسٍ من الوصول إلى السعادة، وفي توقٍ إلى ما يحملهم صوب آفاقٍ روحانية إنسانية في ارتدادٍ روحيٍّ بعد الحرب المادية. وإذ جاء بها "النبي" إليهم بمضمونه ولَهجته وحُبه الإنساني لا الفردي، أَقبلوا عليه برغبة الخروج من الماديات القاسية، وهذا ما يفسِّر انتشارَه السريع فور صدوره وتَتالي طبعاته الأُولى في أَشهُر قليلة[٣].

وجبران، في جميع فصول الكتاب، اعتمد لغةً تبشيرية (لهجة توراتية، وبعضُها إنجيلي تأَثُّرًا بـ "موعظة الجبل") تُناسب ما يريد إيصاله من أَفكار، سكَبَها في إيقاع عصره بقاموسٍ بدَا مرةً باروكيًّا ومراتٍ متحذْلقًا (بالمعنى الإيجابي) في لغةٍ لا تخلو من البطْء والتراكيب

[٣] الطبعة الأُولى: أَيلول ١٩٢٣، الثانية: آذار ١٩٢٤، الثالثة: آب ١٩٢٤، الرابعة: كانون الثاني ١٩٢٥، وتتالت الطبعات بالعشرات وما زالت تتوالى حتى اليوم نصًّا أَصليًّا وترجماتٍ إلى معظم لغات العالم.

والاستعارات الْكانت فترتئذٍ رائجةً بين القراء. ولأَنني كنت أُترجم المعنى لا المبنى، سكبتُ النص في لغة رشيقة هي بنتُ عصريَ اليوم لا عصر جبران. فاللغة كائن حيٌّ يتطوَّر مع العصور والأَجيال المتعاقبة على استعمالها. من هنا أَنْ حتى إنكليزية جبران في كتابه تطوَّرت عما كانت عليه قبل ١٠٠ سنة (١٩٢٣)، وإخاله لو كان له أَن يكتبه اليوم لاتَّخذ لها إيقاعًا آخر يناسب عصرَنا. لذا ترجمتُ إنكليزيةَ جبران الأَمس بعَربية اليوم ورشاقتها وإيقاعها العصري، بإيجازٍ بليغٍ أَمينٍ لمبناها وأَمينٍ للمعنى الجبراني في نسيجه التأْليفي لا اللُغوي. وبذلك أَنقذْتُ ترجمتي من تراكيب النص الأَصلي بإيقاعها العتيق، ومن غبار العربية وما يعتَورُها من تراكيبَ مأْلوفةٍ ومفرداتٍ مكرَّرةٍ وحواشٍ عتيقة مستعمَلة تُثْقل انسياب النص.

الترجمة بنتُ العصر وتقدُّمِ اللغة، لذا يجب أَن تكون بسلاسة ونضارة وقُرب من القارئ، ولو كان الأَصل في لغة قديمة أَو متحذلقة وذات أَدوات واصطلاحات عتيقة بطُلَ استخدامها.

ماري هاسكل المُدَرِّسة

حاولتُ أَن أَنقل إلى العربية أَصداءَ جَوّ جبران بالإنكليزية، في تحليقها إلى فضاءات من الخيال نقَلَتْها إنكليزيتُه بأُسلوب حاذى السرديةَ حينًا والشاعريةَ حينًا آخَر، في لغة جاءَت سليمةً أُصولًا وقواعدَ لأَن ماري هاسكل نقَّتْها حتمًا من شوائبَ وسقطات. غير أَن ماري هاسكل عملَت على اللغة كمُدَرِّسةِ لغةٍ إنكليزية لا ككاتبة. ولو قُدِّر لجبران أَن تُراجعَ نصَّه كاتبةٌ أَو شاعرة، كما حال باربرة يونغ لاحقًا في حياته، لربما كان أُسلوبُه مُوَشًّى أَكثرَ بعطر الشعر الذي يليق بجوِّ الكتاب. لكنه جاء في لغة عادية بنْتِ عصره، وإخالُ مترجميه الأُوَل وضعوا نصوصهم بلغةٍ عربيةٍ بنتِ عصرهم بتراكيبها العادية وبعضها الباروكيّ المتحذلق، وهي غير ما هي اليوم، ما يجعلها في حاجة إلى ترشيق.

الشكْل العمودي لا النثْر الشعري

بعد قراءتي "النبي" مرَّاتٍ متتابعةً فيما أَستعدُّ لترجمته (في طبعة "كنوف" المأْخوذة عن الطبعة الأَصلية الأُولى كما هي)، لاحظتُ أَن تقسيمَه فصولًا جاء متتابعًا كأَنه رواية طويلة بدون عناوين جانبية ولا حتى عناوين فصول، ما يعني أَن جبران أَراده كذلك، أَو أَن "دار كنوف" أَرادَتْهُ بهذا الشكل ووافق عليه جبران، هو الْكان حريصًا على تصحيح كُتُبه بدقة إخراجية قبل موافقته على الطباعة.

سوى أَنني، انسيابًا مع إيقاع عصرنا المتوهِّج اليوم تسارُعًا، قسمتُ فصولَه بعناوينها. وأَكثر: أَردتُ أَن أَرفع عن الجُمَل الجميلة ضغطَ تراكُمِها الأُفقي، فَنَثَرْتُها عموديًّا بحسب سياق الجملة، تاركًا لها مُتنفَّسًا على بياض الصفحة كي تستقلَّ كلُّ جملةٍ منفردةً على سطر

خاص بها، لا تربطها نقاط ولا فواصل ولا مقاطع مكتظَّة، تَشَبُّهًا بريشة الرسام التي لها كلُّ مساحة القماشة البيضاء تتنقَّل على مداها وهواها حرَّةً في هدلة الفراشات.

أَستدرك هنا فأُنبِّهُ بتشديدٍ أَلَّا يؤْخذَ هذا الشكلُ العمودي على أَنه ''نثرٌ شعريّ'' أَو «شعر منثور'' أَو ''قصائد نثر'' (كما يتمُّ التعريف بـ''النبي'' أَميركيًّا: Prose poems). لا... أَبدًا... هذا كتابُ نثرٍ أَولًا وأَخيرًا وبين بين. وهو نثر جميل جدًّا. وهو نثر جماليٌّ راقٍ شفَّاف، لعله أَعلى درجات النثر وأَرقاها، لكنه ليس شعرًا ولا بحال.

انطلاقًا من هنا، تعمَّدتُ لغةً تنساب مع هذا الشكل النثري في بسْط النص على الصفحة البيضاء، ولم أَتردَّد في استعمال كلمات له قريبة من المحكية، فأُحاكي بساطةَ جبران الإنكليزيةَ الوديعةَ في أَكثر من موضوع في النصوص، لأَجعل النص العربي ذا نضارةٍ وسلاسةٍ وقُرْبٍ من قلب القارئ قبل عقْله، وهذا بعضُ ما هدف إِليه جبران في كتابه.

في اتساع اللغة العربية

تعمَّدتُ أَحيانًا في أُسلوبي صياغةَ التقديم والتأْخير، والبدْءَ بالجملة الاسمية حيثما تصُحُّ، تسهيلًا لربط بقية الجملة، وأَحيانًا وصلتُ ''أَل'' التعريف بالفعل ترشيقًا لموسيقى الجملة وتخفيفًا من ثقْل الجملة أَحيانًا بالاسم الموصول. واعتمدتُ التشكيل حيثما يكون لبسٌ في التقاط المعنى. لكنه جاء في مواضع أُخرى تشكيلًا يستكمل جماليا الحرف العربي المنمَّقة بغير تعقيد.

الترجمة عمل إبداعي حمَّال احتمالات

قلْتُ في مستهَل مداخلتي أَن الترجمة عندي ثمرةُ احتمالات، فلا رضًى كاملًا عن ترجمةٍ تظلُّ تحتملُ بعدُ صيَغًا أُخرى قد تكون جميعها صالحةً وصحيحةً في النص الواحد. وكنتُ غالبًا ما أَبتعد عن ترجمتي أَيامًا طويلةً حتى أَعود إِليها فأَقرأَها بعين دون ذاكرة، ما كان يُتيحُ لي تعديلًا وجدتُهُ ضروريًّا. وأَنا واثقٌ بأَنني، بعد مدةٍ من صدور هذه الترجمة، سأَعود إِليها وأَجد ما يَجمُل بي بعدُ أَن أُعدِّل أَو أُبدِّل، خصوصًا في التراكيب لا المعاني، لأَن المعاني تكون انسكبَت في لغتي ويبقى أَن أُنصِّعَها بعدُ أَكثر.

لذا أُؤْمن أَنَّ في الترجمة احتمالاتٍ، فلا يقال إِن هذا النصَّ المترجَم أَصحُّ من ذاك بل إِنه أَقربُ إِلى الأَصل من ذاك، وإِنْ يكن الاثنان قريبَين من الأَصل. من هنا أَنْ لا ترجمةَ نهائيةً كاملةً لأَيِّ نص، خصوصًا حيال غنى العربية بالمفردات الدقيقة: من ذلك مثلًا كلمة hand الإنكليزية التي عادةً تُتَرجَم ''اليد''، لكنها في مواضع أُخرى تأْتي بمعنى ''الكف''، وتكون ''اليد'' صحيحة لكن ''الكفّ'' أَصح.

لا صحيحَ حاسمًا في الترجمة بل احتمالات ضمن النص الواحد أَو المعنى الواحد. وهنا يكمُن

العمل الإبداعي.

هكذا كان ربطي دقيقًا عند مراجعة ترجمتي. وبـ''الربط'' أَقصد توحيد المعنى الجبراني بالمبنى العربي، كما حصل، مثلًا لا حصرًا، لمفردةٍ في الفصل الأَول من ''النبي'' وردَت هي ذاتها في الفصل الأَخير. وهي فعل bear. ففي الفصل الأَول ورَدَ هذا الفعل في عبارةِ أَن السفينة آتيةٌ إِلى المصطفى في أُورفليس to bear him back to the isle of his birth، فيكون فعل bear هنا بمعنى الحَمْل أَي آتيةٌ لتحملَه وتُعيدَه إِلى جزيرة مولده. وفي الفصل الأَخير ورد الفعل ذاتُهُ bear بمعنى الحبَل، في عبارة another woman shall bear me أَي تحبَل بي امرأَة جديدة. وإِذا كانت عبارةُ another woman صحيحةً بمعنى ''امرأَة أُخرى''، فالأَصحُّ في معتقد جبران أَنها ''امرأَة جديدة'' في الحياة الجديدة التي سينتقل إِليها جبران المؤْمن بالتقمُّص وولادات متتالية متعاقبة، وكلٌّ منها ''جديدة'' لا ''أُخْرى''.

هكذا، بين ترجمة معنى المعنى إِنكليزيًّا، وتنصيع الأُسلوب عربيًّا، وما ورد في سياق هذه المداخلة من شُرُوح وتفاصيل، أَكون بلغتُ ما به عنونْتُ مداخلتي بأَن الترجمة، فعلًا، عملٌ إِبداعي.

جبران خليل جبران[٤]، المرأة والموسيقى

نادين نجم

في البداية، وقبل أن أغوص في شرح كتاب "نبذة في فنّ الموسيقى"[٥] لجبران خليل جبران، اودّ أن اتحدّث عن أهمية هذا الكتاب وأهمية ترجمَته للغة الإيطالية. كانت فكرة ترجمته تحدياً كبيراً على كل الأصعدة. فالتحدّي الأول كان على صعيدي الشخصي، إذ أنّني عمِلتُ على ترجمتهِ من بُعدٍ موسيقي ثم أدبي، خصوصاً أنني مختصّة في العلوم الموسيقية وفي اللغة الإيطالية أيضاً.

ثانياً كان من الصعب أن نُترجمَ إلى الإيطالية نصاً كهذا، ليس لأن نصَّ جبران صعبُ الترجمة أو لأنّي أنا و الزّميلين الصّديقين د. مايا الحاج[٦] وفرانشيسكو ميديتشي[٧] لا نجيد الترجمة. ولكن لأننا سعينا سوياً أن نُظهر في ترجمتنا روحانية جبران وأعتمدنا الدقّة وغُصنا في أبسط التفاصيل وفي إظهار معنى المعنى، و ذلك لخلقِ نصاً عندما يقرأه القارئ الإيطالي يَعتقد أنّه قد كُتبَ فعلاً باللغة الإيطاية وليس مُترجماً. و هنا بالتالي كان التحدّي الأكبر. عملٌ دؤوب دام لأكثر من عامين، تواصل دائم ومستمر ما بين إيطاليا ولبنان، مراجعات وتصحيحات لا تُعدّ ولا تُحصى، لنَصلَ إلى ما وصلنا إليه اليوم. وها هو "نبذة في فنّ الموسيقى" بنُسختهِ العربية والإيطالية بين يدينا.

نحن نَعلمُ أن جبران خليل جبران هو فيلسوفٌ، كاتب، شاعرٌ ورسّام. وفي هذا الكتاب إكتشفنا وسيكتشف الجمهور الحاضرُ معنا اليوم جبران المولع بالموسيقى وبعالم النغمات.

فمعلومٌ للجميع أن جبران أمضى حياته ما بين الكتابة والرسم، ولكن قلّة قليلة تعرف ميلهُ للموسيقى.

---

[٤] جبران خليل جبران: شاعر وكاتب وفيلسوف لبناني، ولد في بشرّي في ٦ كانون الثاني دسنة ١٨٨٣ وتوفي في نيويورك في ١٠ نيسان ١٩٣١. ذهب في العام ١٩٠٨ الى باريس لدراسة الرسم وفي العام ١٩٢٠ أسس الرابطة القلمية مع اهم كتّاب المهجر، ومنهم مخائيل نعيمة وأمين الريحاني. كتب باللغتين العربية والإنكليزية و من أهم كتبه كتاب "النبي" الذي نشر في العام ١٩٢٣ وقد تُرجم الى أكثر من ١٠٠ لغة.

[٥] جبران خليل جبران، "نبذة في فن الموسيقى"، مطبعة جريدة المهاجر، نيويورك ١٩٠٥.

[٦] مايا الحاج: أستاذة متفرغة في كلية الآداب والإنسانيات، رئيسة قسم اللغة الإنكليزية زالترجمة في جامعة سيدة اللويزة، لبنان. حاضرت في العديد من الدول الغربية حول علم الترجمة وتفاعل الحضارات، كما أنها نشرت ابحاث عدّة حول أدباء المهجر وتداخل اللغات وعلم المعاجم والقواميس.

[٧] فرنشيسكو ميديتشي: مترجم أيطالي، قام بترجمة عدد كبير من كتابات جبران خليل جبران، المنشورة وغير المنشورة، باللغة الإيطالية. له أيضاً مقالات عدّة وأبحاث حول جبران، والكتّاب العرب في المهجر. وقد نُشرت أعماله في لبنان كما في الولايات المتّحدة الأميريكية.

وكيف لا فباكورة أعمالهِ الأدبية كانت "نبذة في فن الموسيقى" عن عمر ثمانية عشر عاماً، وكان ذلك في العام ١٩٠١. أما الكتاب فقد نُشر في العام ١٩٠٥ على مطابع جريدة المهاجر في نيويورك.

محاضرتي اليوم هي بعنوان: جبران، المرأة والموسيقى. ولماذا المرأة والموسيقى؟ إذ يبيّن لنا هذا الكتاب كم كان للمرأةِ دوراً مهماً في عالم الموسيقى من العصور الماضية حتى يومنا هذا.

وكم كان للمرأة أهمية أكبر في حياة جبران. فهي المُلهمة والراعية والأم والأخت والحبيبة ومصدرَ نجاحاتهِ، حتى أنها مصدر إستمراريتهِ. نحن اليوم نُدينُ لإمرأة لولاها لما جالت أعمالُ جبران العالم ولا وصلت مقتنياتهِ وجُثمانهِ بعد موته إلى لبنان. إنها ماري هاسكيل[٨] المرأة التي اكتشفت جبران و فَهمت وعَرفت عبقريته. وفي مقدمة كتابنا ذكرنا محادثة دارت بينهما، أي ماري وجبران. إذ سألته في أحد الأيام ماذا يمثّل لك الشعر؟ فأجاب: "إنّه إمتداد للنظر - كما الموسيقى للسّمع"[٩].

لقد اتخذت الموسيقى و منذ فجر التاريخ حيزاً كبيراً في حياة البشرية. فهي التي رافقتِ الإنسان في كل مراحلِ حياته، من ولادتهِ حتى مماتهِ، من المهد حتى اللحدِ كما يُقال. وهذا ما شرحهُ لنا جيران خليل جبران في كتابه "نبذة في فن الموسيقى". جبران لم يتكلم عن نظريات الموسيقى ولم يخبرنا عن مقاماتها والسلالم التي تتكون منها ولكنّهُ في نصّه هذا أخبرنا عن تأثير هذه القوة الإلهية، هذه المرأة الخالدةِ والوجهُ السرمدي، أي الموسيقى.

يستهلّ جبران كتابه "نبذة في فن الموسيقى" بالقول: جلستُ بقربِ من أحبتها نفسي أسمع حديثها. أصغيت ولم أنبسْ ببنتِ شَفة فشعرتُ أنّ في صوتها قوةً اهتزَّ لها قلبي إهتزازاتٍ كهربائية فَصَلتْ ذاتي عن ذاتي، فطارت نفسي سابحةً في فضاءٍ لا حدَّ لهُ. ثم يُكمل ويقول: سحرٌ عجيبٌ مازج صوت حبيبتي وفعلَ بشواعري ما فعل، وأنا لاهٍ عن كلامها بما أغناني عن الكلام.

فللوهلة الأولى نعتقدُ أن جبران يتكلم عن حبيبتهِ، اذ يصِفُها بأجمل الأوصافِ والتعابير لنكتشفَ لاحقاً أنَّ كلُ ما كان يقولهُ لمعشوقتِهِ كان في الحقيقةِ تبجيلٌ وإجلالٌ للموسيقى.

---

[٨] ماري هاسكل: هي مربّية أميريكية ومديرة مدرسة. ولدت في١١ كانون الأول سنة ١٨٧٣ وتوفيت في ٩ تشرين الأول سنة ١٩٦٤. كانت راعية أعمال جبران خليل جبران و هي من آمنت بموهبته الفنية. فأرسلته الى باريس لدراسة الرسم ودعمته حتى مماته. حققت ماري وصيّة جبران فنقلت جثماته ومقتنياتهِ بعد موته الى مسقط رأسه بشرّي.

[٩] فرانشيسكو ميدتشي، مايا الحاج، نادين نجم: "نبذة في فن الموسيقى" لجبران خليل جبران، دارميزوجيا، ميسينا إيطاليا، ص ٢٣ .

فينهي المقطع الأول من الكتاب قائلاً: هي الموسيقى أيها الناس، سمعتُها إذ تنهدت حبيبتي بُعيدَ بعض الكلمات، وابتسمَتْ في بعضها. سمعتُها لمّا حكتْ تارةً بألفاظ متقطعةٍ، وآونة بِجملٍ متواصلة، وأخرى بكلماتٍ أبقت نصفَها بين شفتيها. وهنا لا بدّ لنا الإشارة الى تواردٍ في الأفكار وذلك في إحدى اشهر أغنيات القرن العشرين للمغني الإيطالي أندريا بوتشيللي Vivo per Lei[10] (أعيش من أجلها) ففي هذه الأغنية، وبعد سردٍ طويل عن محبوبتِهِ وكيف أنه لا يستطيع العيشَ من دونها، نكتشف في النهاية انَّ حبيبتُه هذه ليست سوى الموسيقى وأنه من المستحيل عليه ان يحيا ولو للحظةٍ من دونها.

سأتلو عليكم المقطع الأول من الأغنية باللغة الإيطالية ثم ترجمتُها باللغة العربية.

Vivo per lei da quando sai
La prima volta l›ho incontrata
Non mi ricordo come ma
Mi è entrata dentro e c›è restata
Vivo per lei perché mi fa
Vibrare forte l›anima
Vivo per lei e non è un peso

منذ أن عرفتُها وأنا اعيش لأجلها
منذ لقاءنا الأول
لم أعد أذكرُ كيفَ حصلَ ذلك
اذ دخلَتْ إلى أعماقي ومكثت
أعيش لأجلها، لإنها تهتزّ لها النّفوس
أعيش لأجلها، فهي ليست عبئاً عليَّ البتى.[11]

لم يترك جبران موضوعاً يتعلّق بالموسيقى إلا وتطرق إليه في هذا الكتاب. وكلما غُصنا في عُمقِ أفكاره وثقافته - حتى ولو كان في الثامنة عشر من عمره - كُلما زادت بنا القناعة كم كان فعلاً مُلمّاً في عالم الموسيقى وبإلتصاق هذه الأخيرة بالمرأة إلتصاقاً وثيقاً. فلنتخايل سوياً هذا المشهد من العصور الغابرة. إحتفالاتٌ دينيةٌ ودنيوية تُقام في المعابد والقصورعند الفراعنة والفينيقيين والأشوريين و بلاد ما بين النهرين والرومان واليونان وغيرهم من الشعوب.

[10] Andrea Bocelli, Vivo per lei, Musica: Gatto Panceri -Valerio Zelli, 1996.

[11] ترجمتي الخاصة للمقطع الأول من أغنية أعيش من أجلها Vivo per Lei.

وها هي المواكبُ تمرّ، في طليعتها نساءٌ موسيقيات يعزفنَ على أوتار القيثارة[12] أو ينفخنّ على الناي[13] أو ينقرن الدفوف[14] ويُنشدن ألحان الخلود.

وأكبر دليل على إلتصاق المرأة بالموسيقى هي جدرانيات الأهرام. فقد حرصت الحضارة الفرعونية على رسم جلسات الموسيقى وتحديداً النساء منها في أكثر من مناسبة. وكان للموسيقى عند المصريين القدامى آلهة، وكانت تدعى حتحور[15]. كما أن ملهمة الموسيقى عند اليونان "يوتيربي"[16] كانت إمراة. وشفيعة الموسيقى والموسيقيين عند المسيحيين هي أيضاً إمرأة. فالقديسة تشيشيليا[17] (سيسيليا) عبّرت عن حبّها للربّ بالغناء والعزف فأصبحت رمزاً من رموز الكنيسة. وتأكيداً على ذلك فإن اشهر وأقدم أكاديمية للموسيقي في أوروبا، متواجدة في إيطاليا وتحديداً في العاصمة روما وهي على إسم هذه القديسة، وهي الأكاديمية الوطنية للقديسة شيشيليا Accademia Nazionale di Santa Cecilia[18].

[12] القيثارة: من أقدم اللآت الموسيقية عبر التاريخ، آلة وترية اصولها أشورية مكوّنة من صندوق مصوّت وعلى جانبيه قرنان تمسك بهما قطعة خشبية أفقية تثبّت عليها الأوتار الأربعة او الخمسة المشدودة والمثبتة من الجانب الآخر على الصندوق المصوّت.تطوّرت هذه الألة عبر التاريخ واتخذت أشكالاً مختلفة وزيد عليها أوتاراً عدّة.

[13] الناي: آلة موسيقية شرقية هوائية تستخدم في التخت الموسيقي الشرقي وهي أساسية في الموسيقى العربية. أصولها تعود للحضارات القديمة ومنها المصرية والسومرية. يُضنع الناي من القصب البرّي، وهو عبارة عن قصبة جوفاء، مفتوحة الطرفين، وله ستة ثقوب أمامية.

[14] الدّف: آلة موسيقية إيقاعية عربية قديمة مشهورة، ترافق الألحان والأنغام. يتكون الدّف من إيطار يسمى طارة يشد عليه جلد رقيق على أحد وجهيه. وُجد الدّف في حضارة بلاد ما بين النهرين.

[15] الآلهة حتحور: هي معبودة مصرية قديمة صوّرت تارةً على شكل بقرة وتارة على شكل إمرأة لها اذنا بقرة أو على رأسها قرنان. هي آلهة السماء و الحب والجمال، والفنون والفرح والسعادة، والأمومة والخصوبة والزواج، بالإضافة الى أنها كانت آلهة الموسيقى والمهرجانات. كانت شخصية أنوثية قوية تدعم السيدات في كل مكان.

[16] يوتيربي: هي إحدى آلهات الإلهام التسع عند الإغريق، عُرفت بكونها ملهمة الموسيقيين. فقد عنيت منذ القدم بالشِعر الغنائي والموسيقى. وكانت تُصوَّر دائماً في يدها آلة الناي.

[17] القديسة تشيشيليا: هي قديسة شهيدة من القرن الثاني بعد الميلاد. تعيّد لها الكنيسة في ٢٢ من شهر تشرين الثاني. ولدت في روما لعائلة نبيلة، ولقّبت بشفيعة الموسيقيين لكونها موسيقية. إذ عندما اجبرت على الزواج من رجل وثني ونبيل راحت ترتّل في قلبها طالبة من يسوع المسيح ألا تتم مراسم الأكليل وأن تبقى عذراء. فكان لها ما ارادت واعتنق المسيحية زوجها وأخاه فتمّت ملاحقتهم من قبل الامبراطور الروماني ماركوس أوريليوس. توفت في جزيرة صقلية برائحة القداسة.

[18] Accademia Nazionale di Santa Cecilia أكاديمية سانتا تشيشيليا الوطنية، هي معهد موسيقي على إسم القديسة تشيشيليا، أسس بمرسوم بابوي أصدره البابا سيكستوس الخامس عام ١٥٨٥.

في مقدمتنا لهذا الكتاب ذكرنا إحدى رسائل جبران لصديقته الكاتبة اللبنانية مي زيادة[١٩]، حيث يقول فيها: ”اسمحي لي الآن أن اغبطَ يدكِ على عودكِ وعودكِ على يدكِ. أرجوكِ ان تذكري اسمي مشفوعاً باستحساني كلما ضربتي نغم النهوند على الأوتار، فهو نغمٌ أحبّه...[٢٠]“ والجدير بالذكر أن مي زيادة كانت تُجيد العزف على العود وكان جبران يتخايل مي ماسكة العود بين يديها تُطربُ الحاضرين في مجلسها، وكأنه ملمّحاً بالتالي الى الأميرة الأموية ولّادة بنت المستكفي[٢١] الشاعرة والعازفة التي شغلت الأندلسَ.

الأندلس الذي كان مصدر الفنّ والإبداع والموسيقى على مدى سنين طويلة، ومنه استوحى الغرب وخصوصاً الشعب الأسباني كثير من موسيقاه وشعره وفنّ العمارة.

لم يأت حبّ جبران للموسيقى من العدم أو محضَ الصُدف، بل كان لوالدته كاملة رحمة دورٌ مهم في عشقهِ للموسيقى. فقد تشبّع جبران من الألحان الشرقية والقروية والشعبية التقليدية من خلال صوتِ كاملة الجميل وعزف بطرس على العود، وهو الأخ الغير شقيق.

من هنا نستنتج كيف له أن يصف تأثير الأصفهان والَصبّا والنهوند والراست[٢٢] على مشاعر المستمع.

إذ خصص لكلٍ من هذه المقامات مقطعاً في كتابه. فوصف النهوند بالحنين الذي يحيا ببعضِ الأمل، والأصفهان بالأنين، أما الصّبا نغمة فرحٍ تُنسي المرءَ أتراحَه.

فالموسيقى والمرأة، وجهان لنفس العملة الذهبية اللآمعة وأتى كتابنا كمثل هذه القلادة. وجهٌ من الكتاب باللغة العربية ووجهٌ باللغة الإيطالية وها هي جوهرتنا أمامَنا.

جبران اليافع كتب عن الموسيقى وألهمت كتاباته لاحقاً كثُر في العالم. إذ تحولت بعضٌ من نصوصهِ الى أغانٍ باتت ملتصقة بتراثنا وكياننا. فقد ذكر د. باولو برانكا[٢٣] في توطئة هذا

[١٩] مي زيادة: أديبة وكاتبة لبنانية ولدت في الناصرة عام ١٨٨٦ وتوفيت في القاهرة عام ١٩٤١. كتبت العديد من الكتب وكانت إمرأة رائدة. كان الصالون الأدبي الخاص بها في القاهرة الأشهر على الإطلاق. بقيت تراسل جبران خليل جبران لمدة ٢٠ عاماً دون ان تتلتقي به، وتحولت هذه الرسائل فيما بينهم لاحقاً لكتاب تحت عنوان ”الشعلة الزرقاء“.

[٢٠] الشعلة الزرقاء: كتاب رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة، وعددها ٣٧ رسالة.

[٢١] ولّادة بنت المستكفي: أميرة وشاعرة أندلسية وهي إبنة الخليفة محمد المستكفي بالله. ولدت في قرطبة العام ٩٩٤ وتوفيت العام ١٠٩١. كان لديها أهم مجلس أدبي آنذاك.

[٢٢] الأصفهان، الصّبا، النهوند، الراست: هي مقامات من الموسيقى الشرقية العربية، والمقام هو عبارة عن مجموعة درجات موسيقية متتابعة بينها أبعاد ثابتة، والتي تمنح المقام طابعاً خاصاً له.

[٢٣] باولو برانكا: مستشرق ومترجم إيطالي، أستاذ اللغة العربية في جامعة القلب الأقدس الكاثوليكية – ميلانو. مختص بالشؤون الإسلامية وهو محاضر في جامعات مختلفة، وله ترجمات عديدة من العربية الى الإيطالية.

الكتاب أغنية ”أعطني الناي وغنّي“[٢٤] المأخوذة من كتاب ”المواكب“ والتي اصبحت جزءً لا يتجرأ من وطنيتنا.

فحين نقول جبران نذكر هذه الأغنية وعند ذكر لبنان في الخارج إن كان بين مجلس المهاجرين أو الأجانب تُذكر هذه الأغنية وفي أي تقريرٍ مُتلفز عن بلد الأرز أو عن جبران لا توضع إلا هذه الأغنية بالتحديد. سأذكر لكم ايضاً عدة أغانٍ مستوحاة من كتابات جبران.

”المحبة“ المأخوذة من كتاب ”النبي“، والتي لحّنها الأخوين الرحباني[٢٥] وغنتها السيدة فيروز[٢٦]، و”البلاد المحجوبة“ التي لحنها وديع صبرا[٢٧] واضع النشيد الوطني تحت عنوان ”هوذا الصبحُ“ الى أغنية ”جوليا“ للفريق البريطاني الأشهر The Beatles[٢٨] والتي هي مستوحاة من كتابات جبران، وصولاً الى قصيدة ”نشيد الحب“ التي سأنهي محاضرتي بها. فقد تحولت إلى أغنية من ألحان جوزف خليفة[٢٩] وأداء السيدة ماجدة الرومي[٣٠].

فخلاصة جبران، المرأة والموسيقى ليست سوى نشيدٌ للحب ودعوة لعيش الموسيقى فهو من فقال في كتابه: ”تِ معي يا صاح الى مسرح الذكرى لنرى منزلة الموسيقى عند أمم طوتهم الأيام، وتعال نتأمل تأثرها في كل دورٍ من أدوار إبن آدم“.

[٢٤] أعطني الناي وغنّي: أغنية من كلمات جبران خليل جبران وألحان نجيب حنكش. أدتها السيدة فيروز في العام ١٩٦٤.

[٢٥] الأخوين الرحباني: إسم بختصر عاصي (١٩٢٣ - ١٩٨٦) ومنصور الرحباني (١٩٢٥ - ٢٠٠٩)، هما اخوان من منطقة إنطلياس في لبنان. من عظماء المؤلفين الموسيقيين اللبنانيين والعرب. قاموا بالنهضة الموسيقية والشعرية اللبنانية من خلال مسرحهم الغنائي وذلك من خلال صوت فيروز التي اصبحت زوجة عاصي.

[٢٦] فيروز: نهاد حداد المعروفة فنياً بإسم فيروز. ولدت في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥. أيقونة الغناء و المسرح اللبناني. أطلق عليها الملحن حليم الرومي بعد ان اكتشف موهبتها في الإذاعة اللبنانية إسم فيروز. تزوجت عاصي الرحباني في بداية الخمسينات وكانت نجمة ألأعمال المسرحية للأخوين الرحباني.

[٢٧] وديع صبرا: موسيقي لبناني، واضع النشيد الوطني اللبناني. ولد في ٢٣ شباط ١٨٧٦ وتوفي في ١١ نيسان ١٩٥٢. درس الموسيقى في فرنسا وأسس في بيروت دار الموسيقى التي اصبحت فيما بعد المعهد العالي للموسيقى. له مؤلفات عديدة للأوركسترا وللبيانو وأيضاً كتب أول أوبرا باللغة العربية وهي بعنوان ”الملكين“.

[٢٨] الخنافس The Beatles: فرقة غناء روك بريطانية. تأسست سنة ١٩٦٠ وكانت مؤلفة من ٤ أعضاء هم جون لينون، بول مكارتني، جورج هاريسون و رينغو ستار. كان لها وقع كبير على الموسيقى في القرن العشرين وما زالت أغاني هذه الفرقة تتصدر المبيعات حتى يومنا هذا.

[٢٩] جوزف خليفة: مؤلف موسيقي لبناني، عُرف بتلحينه لأغاني وتراتيل عديدة ومنها أغاني مشهورة لماجدة الرومي.

[٣٠] ماجدة الرومي: مغنية لبنانية، سفيرة النوايا الحسنة لدى الأمم المتحدة ومنظمة الفاو. ولدت في كفرشيما في ١٣ كانون الأول ١٩٥٥ وهي إبنة الملحن حليم الرومي.

اللّغة العربيّة زمن العولمة والتّكنولوجيا
قراءة في التّحدّيات والرّؤى
د. سلمى عطاالله، أستاذة مشاركة

نعيش في عصر يضجّ بالتّطوّر المتسارع والتّغيّرات المطّردة. عصر تركت فيه العولمة بصمتها فجعلته عصرًا لا يشبه أيّ عصر سبقه. إنّه عصر التّكنولوجيا والاتّصالات، فيه من التّحدّيات والصّعوبات الشّيء الكثير. فيه ما عاد للقيم والمبادئ والأخلاق الشّأن اللّازم، إذ ضاعت هذه الأمور في خضمّ مادّية هذا الزّمان وصَبْغَتِه الاستهلاكيّة. **وقد يكون بعض اللّغات والعلوم الإنسانيّة من أبرز الأمور الّتي دفعت ثمنًا في هذا الإطار.** من أجل ذلك ذهب الفلاسفة والمفكّرون من أمثال الاقتصاديّ الألمانيّ "ألفرد ويبر" (Alfred Weber) و العالم النّفسيّ السّويسريّ "كارل جاسبرز" (Karl Jaspers) **إلى "أنّ الأمل الوحيد لإنقاذ الحضارة الجديدة يكمن في المجال الرّوحيّ، أي إنّ الحضارة تعتمد على الثّقافة" (شرف، ١٩٩١، ص ٢٧٤)، واللّغة هي جزء لا يتجزّأ من الثّقافة، لا بل هي حاملة لها، متفاعلة معها وفاعلة فيها... ما يقودنا إلى أنّ الاهتمام باللّغة هو من أبرز الإصلاحات في هذا المجال...**

فماذا يمكننا أن نقول، ضمن هذا الإطار، عن هذا العصر، وعن الحضارة والثّقافة العربيّتين؟ ماذا عن اللّغة العربيّة اليوم؟ كيف هي أحوالها في حاضنتها الطّبيعيّة، أي في الدّول العربيّة؟ هل جارت هذا العصر أو تأخّرت عنه؟ هل واجهت تحدّياته، أو سقطت ضحيّة لها؟ هل يمكن تطويرها ونقلها إلى مراتب أخرى غير تلك الّتي تحتلّها اليوم؟ وما الأسباب الّتي حالت أو قد تحول دون ذلك؟ ومن هو المسؤول عن هذا الواقع الّذي تعيشه هذه اللّغة وعن المأمول منها؟...

أسئلة سوف نحاول الإجابة عنها في هذه القراءة محاولين توزيعها إلى ثلاثة أجزاء. في الجزء الأوّل نلقي الضّوء بشكل سريع على واقع العصر، فيما نصوّر في الجزء الثّاني واقع اللّغة العربيّة في عالمها العربيّ، لنختم في الجزء الثّالث في مقاربة لبعض الحلول والرّؤى.

أوّلًا: واقع العصر

إنّنا في القرن الحادي والعشرين، نعيش في عالم جديد، لا بل متسارع في التّجدّد، بشكل لا يمكن معه العودة إلى الوراء، أو الوقوف للتّأمّل في الرّاهن. **وقد أصبحت الثّورة المعلوماتيّة السّمة المميّزة لهذا العصر والمشكّلة له،** بعد أن مدّت الإنسان بما جعل حياته تتغيّر تغيّرًا جذريًّا، كما بقدرات هائلة على التّأثير في الطّبيعة وفي الإنسان نفسه...

أمّا السّمة الأخرى لهذا العصر فهي العولمة الّتي كان أكثر المبشّرين بها هو الفيلسوف الكنديّ "مارشال ماكلوهان" (M. McLuhan) **الّذي اعتبَر العالم سيؤول إلى مجرّد قرية كونيّة،** وهذا ما حصل في الواقع. وقد ظهر مفهوم العولمة ، في الفترة الرّاهنة، "نتيجة حتميّة لانهيار نظام عالميّ كان يقوم على القطبيّة الثّنائيّة بانهيار "الاتّحاد السّوفياتيّ" وسيطرة قطب واحد هو "الولايات المتّحدة الأميركيّة". **وفي ظلال هذه العولمة، باتت الغلبة لهذه الدّولة الغنيّة أي "الولايات المتّحدة الأميركيّة"** على حساب الدّول الفقيرة والنّامية" . (الجبر، ٢٠١٠، ص ٤٨، ٥١) فكما كانت "المملكة المتّحدة" تسيطر على البحار وتدير العالم في السّابق، هكذا باتت "الولايات المتّحدة الأميركيّة" اليوم، معتمدة، في هذا، على إعلامها الّذي يُعتبر الإعلام الأكبر في العالم والأشدّ تأثيرًا. و "هو يركّز دائما، من خلال قنواته، على تحويل الوظيفة الإعلاميّة لخدمة استراتيجيّته المبنيّة على الهيمنة على الآخر، وتشويه الحقائق المتّصلة بالأديان والحضارات، والتّرويج لمنظومة قيميّة مشوّهة عن طريق إحكام السّيطرة على الموجات الهوائيّة. ففرض النّموذج الأميركي لم يكن فقط بفعل السّيطرة العسكريّة والاقتصاديّة والتّكنولوجيّة، أي القوّة الماديّة، بل كان أيضا بوساطة القوّة النّاعمة عبر التّحكّم في صناعة المعلومات واحتكارها وتوزيعها البرامج الإعلامية". (بن عيّاش، ٢٠١٨، ص ٣٣٩)

هذه الهيمنة للقطب الواحد، وبالتّالي للعولمة، قد أدّت إلى تنميط الثّقافات وإلى إلغاء التّميّز والفرادة والأصالة، إذ هي، وبسبب تطوّر الثّورة المعلوماتيّة، أدخلت العالم في طور من التّطوّر الحضاريّ **أصبح فيه مصير الإنسانيّة موحّدًا أو نازعًا إلى التّوحيد، كونها تتوجّه إلى فرض منطق معيّن على العالم يريده الأقوى...** هذا التّنميط القسريّ العنيف "ساهمت في فرضه العولمة الإعلاميّة، عولمة الصّورة المتّجهة نحو تحويل العالم إلى سوق في خدمة مؤسّسات وشركات تعبر القارّات وتخترق المجتمعات كما تخترق الأدمغة... في إطار منظومة تتاجر بالقيم وتناهض الكثير من الدّول والكثير من أشكال الحكم في العالم بمنطق المصلحة والمنفعة وفقًا لفلسفة العالم الغربيّ خصوصًا أميركا". (الجبر، ٢٠١٠، ص ٧٨) وفي هذا المجتمع المعولم والعصريّ، بات التركّيز على الاستهلاك من مأكل وملبس ومسكن وترفيه وغيرها الكثير هو الأكثر ظهورًا وحضورًا في حياة الإنسان، مقابل تراجع واضح ومخيف للثّقافة بعامّة، وللكتب والبرامج الهادفة والعميقة بخاصّة... **فغزت "ثقافة اللّاشيء" المتمثّلة في الأفكار الاستهلاكيّة معظم حنايا هذا المجتمع، وبات يُعرف بـ "مجتمع الاستهلاك".** يقول العالم النّفسانيّ الألمانيّ "إريك فروم" (Erich Fromm) "إنّ النّمط الجديد للنّظام الصّناعيّ الإداريّ يؤدّي إلى عصر لا إنسانيّ ولا عقلانيّ يتحوّل فيه النّاس إلى

أشياء ويصيرون تابعين لعمليّة الإنتاج والاستهلاك"... (شرف، ١٩٩١، ص ٢٧٤) وفي هذا المجتمع أضحى الكثيرون يتحدّثون عن "غربة الرّوح" في كلّ مكان، شاعرين بفداحة الانفصام بين الوجود والذّات، وضخامة الانقسام بين الأفراد والجماعات، وجسامة الصّدام بين دوافع البناء ونوازع الخراب.

وقد نتج من هذه العولمة، وتحديدًا العولمة الثّقافيّة، نتائج عديدة، يرى بعض الباحثين الغربيّين أنّ أخطرها هو تلك الّتي تصيب اللّغات القوميّة. فصحيح أنّ الوسائل المعلوماتيّة الجديدة، وفي مقدّمتها الإنترنيت، تيسّر انتقال المعلومات، لكنّها، في الوقت نفسه، تيسّر انتقال الأفكار والمعتقدات والإيديولوجيّات، وتروّج لها بطرق مباشرة وغير مباشرة. وقد شهد النّصف الثّاني من القرن العشرين بداية عمليّة التّأسيس التّكنولوجيّ والتّبشير الإيديولوجيّ بالثّورة المعلوماتيّة والإعلاميّة وهيمنتها على ثقافات واسعة من العالم ومنها ثقافتنا العربيّة، وبالتّالي لغتنا العربيّة، إذ **"إنّ اللّغة هي محور جوهريّ في الصّراعات السّياسيّة الكبرى"** (عبد المسيح، ص ٩٢)، **وهي الّتي تدفع الثّمن الأكبر.** ما أثّر في الهويّة العربيّة بطريقة سلبيّة أبعدتها عن أصالتها وجوهرها... وقد رأى بعض الباحثين **"أنّ غالبيّة الأفراد في المجتمعات المعاصرة لم تعد لهم هويّة مستقرّة وثابتة، لأنّ هويّاتهم تميل إلى التّجزئة على الدّوام".** (بن عيّاش، ٢٠١٨، ص ٣٣٨)

هذا كان واقع العصر بشكل عامّ، فكيف بدا واقع الدّول العربيّة، بشكل خاصّ، وبالتّالي واقع اللّغة العربيّة في ظلّ هذا العصر؟ هذا ما سنتوقّف عنده في القسم الثّاني تحت عنوان " الواقع العربيّ".

ثانيًا: الواقع العربيّ:

في كلامنا على اللّغة العربيّة في زمننا الحاليّ، لا يمكن النّأي بها عن حاضنتها الطّبيعيّة والاجتماعيّة، أي المجتمع العربيّ. **إذ إنّ لهذه الحاضنة الدّور الرّئيس في الحال الّذي آلت إليه هذه اللّغة.** وفي عمليّة وصف للواقع العربيّ، لا بدّ من الوقوف عند عدد من السّمات الّتي تشكّل كيانه، وإن كان هناك تفاوت في هذا الأمر بين مجموع الدّول الّتي تشكّل هذا العالم العربيّ، إذ إنّ هناك قلّة قليلة من الدّول العربيّة، وتحديدًا بعض دول الخليج الّتي بدأت تخطو نحو نوع من التّطوّر.

ومن أبرز هذه السّمات:

١. سيطرة البطركيّة أو الأبويّة.

إنّ المجتمع العربيّ، اليوم، حتّى لو بدا حديثًا في بعض مظاهره المادّيّة، هو ليس حديثًا بالفعل، بل هو "مجتمع أبويّ تقليديّ متمثّل في السّلطة السّياسيّة وفي السّلطة الدّينيّة،

وتحكمه علاقات ما قبل الحداثة، وعلى رأسها علاقات الهيمنة الأبويّة والعلاقات المنبثقة منها: الذّكوريّة، العصبيّة العشائريّة، الولاء الطّائفيّ والعائليّ وقمع الفرد وعدم إنصاف المرأة..." (شرابي، ٢٠٠٠، ص ١٩٥) وقد عجز المثقّفون العرب عن مجابهة هذا النّظام، ما جعله يستمرّ مستفحلًا في العديد من دول هذا المجتمع...

وهذا النّظام الأبويّ أو البطركيّ الجديد هو تاريخيًّا حصيلة ما أسماه الشّاعر السّوريّ "أدونيس" "صدمة الحداثة". وهو على جانب كبير من الدّهاء والقوّة ومن القدرة على البقاء. **فهو قادر على حجب ماهيّته البدائيّة المتخلّفة بمظاهر الحداثة والرّقيّ، فيبدو كأنّه مجتمع متطوّر يعيش حالة اجتماعيّة واقتصاديّة تتأرجح بين المقبولة والفضلى.** وهو قادر على إشباع نهم طبقاته الاجتماعيّة المسيطرة، وفي الوقت نفسه على تخدير جماهيره الواسعة وكبتها. وهذا النّوع من الأنظمة "يؤسّس لمجتمعات محافظة بطبيعتها ترفض التّغيير إلّا في حالتين عندما يفرض عليها من الخارج، وعندما يكون ضرورة حيويّة للحفاظ على الذّات. لكنّه، في كلتا الحالتين، لا يأخذ بالتّغيير إلّا جزئيًّا، وبعد أن يكيّفه لمقاصده، فيتحوّل التّحديث إلى آليّة تحافظ على الوضع القائم بدلًا من تغييره. **ونجاحه الباهر على صعيد السّلطة السّياسيّة إنّما هو الّذي أدّى إلى الفشل الحضاريّ الشّامل"** (شرابي، ٢٠٠٠، ص ١٧٠-١٧٣)، **خصوصًا على صعيد اللّغة والفكر اللّذين هما انعكاس للواقع الثّقافي الاجتماعيّ النّفسيّ...**

٢. العجز عن بناء الذّات.

يرى الفيلسوف اليونانيّ "أرسطو" (Aristotle) أنّ الإنسان حيوان اجتماعيّ. فهو إنسان بفضل اجتماعيّته وانتمائه إلى المجتمع، أي أنّه نتاج بنية اجتماعيّة لا بنية طبيعيّة وحسب. فيما رأى الفيلسوف والمنظّر الألمانيّ "كارل ماركس" (Karl Marx)، في مقدّمة كتابه "نقد الاقتصاد السّياسي"، أنّ **الوعي الذّهني ليس هو الّذي يصنع الواقع بل إنّ الواقع الاجتماعيّ هو الّذي يصنع الوعي.** من هنا، يمكن اعتبار الإنسان ومكانته في المجتمع المقياس الّذي على أساسه يُقاس التّخلّف والتقدّم الاجتماعيّين.

أمّا في ما يتعلّق بالإنسان العربيّ فقد نوجز وضعه في خمس سمات أساسيّة هي على التّوالي: انعدام الاستقرار الأمنيّ، الاقتلاع النّفسيّ، ضياع الثّوابت الفلسفيّة، وتسيّب الأخلاق والقيم، والاكتفاء بمجرّد العيش. فهو يعيش في بيئة متوتّرة، إذ إنّ معظم الدّول العربيّة لا يزال يعاني انعدام وجود استقرار أمنيّ بسبب الحروب المندلعة في أراضيه، والّتي تعود في غالبيّتها إلى أسباب خارجيّة، وإلى مطامع دوليّة في ثروات هذه الدّول ومواردها، كما إلى أسباب داخليّة قائمة بشكل رئيس على طبيعة الأنظمة الفاسدة والتّركيبة

الطّائفيّة... والّتي أحسن الخارج، وتحديدًا الغرب، استغلالها وتغذيتها، مؤسّسًا للحركات الأصوليّة المتطرّفة الّتي أسند إليها مهمّة تقويض هذه الدّول، وكلّ ذلك بغية الوصول إلى مآربه السّياسيّة والاقتصاديّة. ما جعل شعوب هذه الدّول تعيش في أوطان مدمّرة ومخرّبة فاقدة لأبسط بناها التّحتيّة، تحت وطأة كوارث وأزمات عديدة أبرزها: الفقر والبطالة وتدنّي الأجور والتّضخّم ونقص الخدمات الاستشفائيّة والتّعليميّة والكساد وضعف الانتاجيّة، بالإضافة إلى هجرة الكفاءات وتشتّتها في أصقاع العالم... وسط هذه الأجواء عاش الإنسان العربيّ، للأسف، بعيدًا عن جوهر الحياة... فهو، أكان فقيرًا أم غنيًّا، ساكنًا في المدن الكبرى أم في الأرياف والقرى والضّواحي، لا يعدو كونه إنسانًا بسيطًا، مستهترًا ومتكلّفًا، تتمحور حياته حول العمل اليوميّ بغية تأمين الرّزق ولقمة العيش والمأوى والملجأ الآمن، كما حول الرّفاهية واللّذة والتّسلية... فلا علاقة حقيقيّة اجتماعيّة أو ثقافيّة تربطه بالحياة سوى العلاقة الذّاتيّة والرّبح المادّيّ...

باختصار، هو يكتفي بمجرّد العيش البيولوجيّ!...

أمّا في ما يتعلّق ببعض التّحديث وخصوصًا التّكنولوجيّ، الحاصل في قلّة من هذه الدّول، فقد ساهمت عوامل مختلفة تتنوّع بين ظروف خارجيّة وأخرى داخلية، في الدّفع إليه، إنّما من دون أجندة عربية، أو استعدادات كافية، ومن دون أن يكون مشروعًا مجتمعيًّا ووطنيًّا واضحًا وواعيًا يحسن التّعامل مع التّحدّيات والمخاطر الجديدة الّتي سيفرضها هذا التّحديث، والأهمّ أنّه، في معظمه، بلغة غير اللّغة العربيّة. ما جعله غير قادر على تغيير الواقع أو إحداث نقلة نوعيّة في طبيعته، كما ساهم في تفكّك البنية الثّقافيّة وفي تعميق التّشتّت الفكريّ والنّفسيّ...

هذا الواقع سطّح الإنسان العربيّ وجعله قابعًا دون مستوى بناء الذّات، ودون الانخراط في العصر بالفاعليّة المطلوبة، كما دون الحضور المنتِج والمبدع... ما أضعف المناعة الفرديّة والمجتمعيّة، وأبعد هذا الإنسان عن أمور أساسيّة تمسّ وجوده وهويّته، وجعله يتخبّط في حالة توتّر وقلق دائمين، أحادا نظره عن كلّ إنجاز مهمّ وضروريّ... وجعله تائهًا عن ذاته، نائيًا عنها، عاجزًا عن تعرّف جوهرها وتحديد هويّتها وإثبات وجودها، غير قادر على الصّمود في وجه محاولات تجزئتها وطمسها وبعثرة ثوابتها وسلخها عن لغتها العربيّة في عالم تنافس صعب...

٣. فقدان الهويّة الثّقافيّة والتّخبّط في أزمة ثقافيّة.

إنّ أزمة الإنسان العربيّ، اليوم، هي، في واقع أمرها، أزمة ثقافة، إذ عجز عن خلق ثقافة خاصّة به، تحمل مميّزات زمنها، وما يكفي من مقوّمات للنّجاح والاستمراريّة... فالثّقافة

العربيّة هي **ثقافة تجزيئيّة برجماتيّة وضعيّة نفعيّة** تفتقد الأسس الموضوعيّة والرّؤية الكلّية الشّاملة والحسّ الاجتماعيّ والوطنيّ... هي **ثقافة شكليّة لحظيّة آنيّة جامدة،** أحاديّة الاتّجاه، تفتقد الحسّ التّاريخيّ الشّامل ذا الخبرة المتراكمة والثّقافيّة، ويغلب عليها الطّابع التّقنيّ الشّكلانيّ الخالي من العمق الإنسانيّ... **هي ثقافة مغتربة،** مهرجانيّة أكثر منها ثقافة تأسيس لوعي ولقيم قوميّة أو إنسانيّة... هي **ثقافة** متعثّرة في **متابعة الجديد في معظم الميادين، وفي مواكبة التّحوّلات العالميّة،** وذلك بفعل تصاعد أهميّة التّكنولوجيا، ولاسيّما تكنولوجيا الاتّصال وثورة المعلومات الهائلة في العالم... **هي ثقافة سطحيّة مغتال العقل فيها،** ثقافة استهلاكيّة استمتاعيّة سطحيّة فرديّة مبتذلة تفتقد الحسّ العميق بالهويّة الذّاتيّة والقوميّة... **هي ثقافة قابعة في التّبعيّة للمفاهيم السّلفيّة أو في التّبعيّة للمفاهيم الغربيّة، ينقصها الاستقلال والتّوجّه الذّاتيّين...** ثقافة **تتحرّك بشكل أو بآخر في إطار البنية السّلطويّة السّائدة... أمّا أبرز ما يعانيه الإنسان العربيّ، في هذا الإطار، فيعود إلى كونه يتميّز "برؤية مزدوجة غير منسجمة وبتعدّدية أخلاقيّة غير متّسقة أو باضطراب النّسق القيميّ لديه حيث يحدث الصّراع بين ما تربّى ونشأ عليه من قيم وبين ما يراه ويسمعه يوميًّا في تعاملاته** من أساليب وآراء تدعو إلى اعتناق القيم السّلبيّة مثل الأثرة والمنفعة الشّخصيّة وحبّ الذّات والحصول على الحقوق من دون أداء الواجبات، بالإضافة إلى المؤثّرات المادّيّة والنّفعيّة الّتي تسود في ظلّ العولمة" (بن عيّاش، ٢٠١٨، ص ٣٤٤)، والّتي أدّت إلى "تعميق أزمة الهويّة والتّراجع عن سياسة بناء الثّقافات الوطنيّة، وازدياد موجة التّبعيّة الثّقافيّة المفرطة لأسواق الثّقافة الاستهلاكيّة، وقد جعلت من العولمة مظهرًا من مظاهر الاستعمار الجديد بالنّسبة إلى العالم العربيّ" (شرابي، ٢٠٠٢، ص ١٣٢). **فالاختراق الثّقافيّ والغزو الفكريّ اللّذين تمثّلا بالعولمة، جعلا الإنسان العربيّ يعيش أزمة تحوّل في ظلّ الهيمنة الخارجيّة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا...** وبات واقعه يتميّز بتركيب اجتماعيّ نفسيّ متناقض في كافّة أوجهه ينعكس في حالة العجز والشّلل الّتي هو فيها: عجزه الوظيفيّ في ممارساته الرّوتينيّة، عجزه السّياسيّ في نظامه الدّاخليّ وفي تحقيق أهدافه الوطنيّة والقوميّة، شلله العسكريّ والتّنظيميّ في حماية مصالحه العليا، وتقصيره في التّخلّص من التّبعية وفي التّوصّل إلى الاستقلال الحقيقيّ والحداثة الصّحيحة. فهذه الثّقافة المهيمنة لا تفرض سلطتها وحسب بل ذوقها وقيمها وآدابها وتقاليدها.

هذا الواقع جعل من هذا الإنسان العربيّ "تشكّلًا ثقافيًّا هجينًا" ليس ناتجًا من التّشظّي الثّقافيّ في صياغة موقعه الاجتماعيّ وموقفه الفكريّ، بل أيضًا، وفي المقام الأوّل، من الشّرخ الدّاخلي الّذي سبّبه انفتاحه على الغرب، إلى حدّ أدّى إلى حالة من التّبعيّة والاتّكاليّة، إلى حالة من الذّوبان في الآخر... وبالتّالي، **أسّس لمحاولات تنميط الشّخصيّة العربيّة**

ولإشكاليّة هويّتها وحتّى فقدانها. فمن المستحيل أن يتقن المرء لغتين وأن يحيا في ثقافتين ويبقى محتفظًا بوحدة شخصيّته، لا سيّما متى لم يكن إتقان اللّغتين ومعرفة الثّقافتين عميقًا أو آمنًا بما فيه الكفاية ليوفّر الأسس اللّازمة لصياغة وجهة نظر مستقلّة.

٤. نأي الإعلام عن دوره الحقيقيّ.

لا يخفى ما لوسائل الإعلام باختلاف أنواعها (تلفاز، مذياع، مواقع إلكترونيّة، إنترنيت، إعلانات...) من تأثير في حياة إنسان اليوم، فـ "الكلمات في وسائل الإعلام لها صورتان من الوجود: الوجود بالقوّة والوجود بالفعل. فكلّ كلمة كما يقول اللّغويّ المجريّ "ستيفن أولمان" (Stephen Ullman) تُسمع أو تُنطق تترك في أثرها مجموعة من الانطباعات في ذهن كلّ من المتكلّم والسّامع". (شرف، ١٩٩١، ص ٩٧-٩٨)

ولوسائل الإعلام العربيّة، بمختلف وجوهها وأنواعها، دور كبير في حياة الإنسان العربيّ، لدرجة يمكننا معها القول إنّ حياته، في جزء كبير منها، قائمة على هذه الوسائل ومتأثّرة بها. لكنّ هذه الوسائل، للأسف، يبدو بعضها، مشترى مأجورًا لأركان داخليّة أو لجهات خارجيّة، لذا نراه خائفًا، خادمًا، يعمل على استرضاء هذه الأطراف وعلى تشويه الأمور وعلى إضاعة العربيّ وإبعاده عن الحقائق، وبالتّالي، عن اتّخاذ المواقف الصّائبة والمؤسِّسة لكيان واثق، مستقلّ وقويّ... فيما بعضها الآخر يبدو ضعيفًا، هشّ المضمون، خاليًا من كلّ معنى وهدف... أمّا القلّة القليلة، والقليلة جدًّا، فهي تؤدّي دورها كما يجب، لكنّها، في هذا، تحارَب وتحاصَر ويُعمل على إلغائها...

أمّا في ما يتعلّق باللّغة، تحديدًا، فقد تراجعت هذه الوسائل وخصوصًا المحطّات التّلفزيونيّة، المحلّيّة والفضائيّة، عن اعتماد اللّغة العربيّة الفصيحة، ولجأت، في معظم الأحيان، إلى اللّهجات المحكية الممزوجة بالأجنبيّة في معظم برامجها، وذلك نتيجة قصر الوعي والثّقافة وعدم وجود المذيعين المثقّفين القديرين والمتمكّنين من الفصيحة الّذين يستطيعون أن يرقوا بالخدمة الإعلاميّة إلى أعلى مراتبها... وقد ذهبت هذه المحطّات إلى ما هو أبعد من ذلك، فملأت مجالها الفضائيّ بمسلسلات وأفلام وبرامج غير عربيّة اجتاحت المجتمعات العربيّة بدءًا بالأميركيّة مرورًا بالمكسيكيّة الّتي جعلت النّاس ولا سيما الطّلّاب يسخرون من اللّغة العربيّة الفصيحة، لغتهم الأم، ويعدّونها شبيهة بالمكسيكيّة، وصولًا إلى التّركيّة الّتي عزّزت اللّهجات المحكيّة. وكان لاجتياح حركة العولمة آثار ملحوظة في الكتابة الرّوائيّة العربيّة، وخصوصًا كتابة المسلسلات العربيّة نتيجة تغيّر مفهوم الوطن والانتماء لدى قسم كبير من الكتّاب. "فقد نشأ هذا الجيل في ظلّ عولمة اقتصاديّة زعزعت مفهوم الدّولة القوميّة، وعولمة ثقافيّة عبر الفضائيّات أثارت العديد من التّساؤلات حول مفهوم الهوّيّة". (عبد المسيح، ص ٨٤)

أمّا الإنترنيت، وبخاصّة مواقع التّواصل الاجتماعيّ، فقد دخلت كلّ بيت، إمّا بلغة أجنبيّة، أو بلغة هجينة أُطلق عليها ما بات يعرف بـ"العربيزي"، وهو لغة تعتمد على اللّهجات المحكيّة إنّما مكتوبة بالحرف اللّاتيني المردوف ببعض الأرقام لترمز إلى بعض الحروف العربيّة. كما أغرقت الإنسان العربيّ في الكثير من الرّذائل أبرزها تقليد الآخر بشكل أعمى، وتحديدًا تقليد كلّ ما يشاهده من سلوكيّات وعادات وتقاليد وذلك تحت شعار الانفتاح على الآخر ومواكبة تطوّرات العصر.

أمّا الإعلانات بمختلف أنواعها (من لافتات على الطّرقات وعلى واجهات المحلّات التّجاريّة والفنادق والمؤسّسات والمصانع والشّركات والمدارس والمستشفيات والصّيدليّات... إلى الإعلانات المكتوبة والمصوّرة...) فباتت في كمّ كبير منها بعيدة عن اللّغة الفصيحة، تعتمد على اللّهجات المحكيّة أو الطّابع الأجنبيّ أو على الاثنين معًا. حتّى إنّ أسماء المؤسّسات بمختلف أنواعها صارت تكتب باللّغات الأجنبيّة.

انطلاقًا من هذا الواقع شكّلت هذه الوسائل تهديدا حقيقيّا على الهويّة الثّقافيّة للإنسان العربيّ، وبشكل خاصّ على اللّغة والقيم والأخلاق، محوّلة هذا الإنسان إلى تابع لا خصوصيّة له ولا تميّز أو فرادة.

٥. تقصير المؤسّسات التّربويّة عن نصرة الفصيحة.

إنّ ما يحدث في النّظام التّعليميّ **في معظم المؤسّسات التّربويّة في العالم العربيّ،** من الحضانة إلى الجامعة إلى الدّراسات العليا، هو أحد أسباب الأزمة الّتي تعانيها المجتمعات العربيّة، **إذ هو ما زال، بالرّغم من الكثير من المحاولات، تعليمًا تقليديًّا آنيًّا غير تثقيفيّ أو طويل الأمد، يركّز على اكتساب المعلومات وليس على بناء الذّات. هذا الواقع أسّس لوجود ضعف كبير على مستوى التّربية والتّعليم وعلى مستوى الدّور الحاسم لهذه المؤسّسات في التّنشئة الاجتماعيّة وفق مبادئ الثّقافة العربيّة وغرس الأبعاد الحضاريّة للأمّة في كيان الفرد.** فـ "هزالة هذه المؤسّسات أثّرت، وبشكل خاصّ، في تفعيل دور الأسرة الّتي لم تعد هي المؤسّسة الاجتماعيّة الرّائدة في تكوين الكيان الثّقافيّ والأخلاقيّ للفرد... إضافة إلى ضعف دور المدرسة باعتبارها مكمّل لدور الأسرة التّربويّ وأداة مهّمة تعمل على ترسيخ أسس الثّقافة العربيّة. فالنّظام التّعليميّ والسّياسات التّربوية كلّها ركائز تنمّي الحاجات المعرفيّة والعلميّة والتّربوية للأفراد وتلبّيها". (بن عياش، ٢٠١٨، ص ٣٤٣)

كما إنّ النّظام التّعليميّ في معظم هذه المؤسّسات رسم إيديولوجيّات خطيرة تركت آثارها في المدرّسين والمتعلّمين، كما في أولياء أمورهم وصولًا إلى المجتمع برمّته. **إيديولوجيّات همّشت العربيّة وأزاحتها عن دوائر الضّوء والاهتمام، مسبّبة مشكلة قوميّة تفاقمت مع الزّمن، حتّى أضحت تلامس الوجود الحقيقيّ للإنسان العربيّ... فهذا النّظام قصّر كثيرًا**

عن أداء دوره في نصرة الفصيحة، لا بل أهمله أحيانًا عمدًا وبناء على استراتيجيّات معيّنة، وأخرى جهلًا وانعدامًا للرّؤى... فإدارات هذه المؤسّسات، سواء أكانت مدرسيّة أم جامعيّة، أهملت ما للّغة العربيّة من صلة قويّة بالتّراث والهويّة القوميّة، بعد أن جعلت لغة التّعليم الأساسيّة والفعليّة هي اللّغة الأجنبيّة، إذ إنّ معظم الموادّ تدرّس بها، وراحت تهتمّ بهذه اللّغات الأجنبيّة مخصّصة لها الجزء الأكبر من الموادّ أو المقرّرات والحصص التّعليميّة، كما الجزء الأكبر من العلامات ومن العمليّة التّقييميّة والتّطويريّة... كذلك راحت تشجّع الطّلّاب على التّكلّم بها معتبرة امتلاكها هو من شروط التّقدّم والنّجاح الأكاديميّين، لا بل التّميّز والتّفوّق والاستمراريّة... حتّى في حصص تدريس اللّغة العربيّة غابت، في معظم الأحيان، الفصيحة عن الحضور، لتغدو العامّيّة هي لغة التّدريس الفعليّة. ولعلّ اعتماد الجامعات اللّغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة لغة أساسيّة للتّدريس، كما اتّخاذ بعضها قرارًا بعدم إلزام الطّلّاب دراسة اللّغة العربيّة في الجامعة من خلال مقرّر خاصّ بها، كما يحصل في بعض الجامعات الخاصّة في لبنان على سبيل المثال، فاقم من حجم المشكلة في المدارس والمعاهد...

وهكذا باتت هذه المؤسّسات الّتي تُعتبر بيت العلم والفكر، منها تنبثق المعرفة ومناهجها، وبوساطتها يمتلك المجتمع معرفة ذاته ومعرفة العالم، **تؤدّي دورًا سلبيًّا في هذا الإطار، بعد أن تحوّلت إلى أداة من أدوات التّلقين والتّنميط والهيمنة الإيديولوجيّة... وقد أسّست لمجتمع مرهق، تائه فاقد للوعي الصّحيح، يحكمه الجهل والتّبعيّة وعدم بناء الإنسان الحقّ في المتعلّمين، حتّى لو خرّج آلاف الخرّيجين...** فبعد مرور أكثر من مئة عام على قيام النّهضة بقيت هذه المؤسّسات تستورد العلم والفكر والتّكنولوجيا وحتّى الأدب من الخارج، عاجزة عن ممارسة الاستقلال الثّقافيّ الصّحيح... وهي، في معظمها، مرتبطة بالنّظام السّياسيّ والاجتماعيّ والدّينيّ القائم، أو باستراتيجيّات سياسيّة دوليّة خارجيّة... وهي تنتج في مدارسها، أشخاصًا مقَوْلَبين على قياس الامتحانات الرّسميّة للبلاد أو تلك الدّوليّة... فيما تنتج في جامعاتها موظّفين لا مفكّرين...

٦. التّخبّط في استلاب لغويّ.

إن "اللّغة ظاهرة طبيعيّة واجتماعيّة في آن واحد. فهي تتولّد وتحيا فتنمو، والإنسان يتدخّل في مجريات أوضاعها فيزكّيها ويفسح لها المجال لكي تزدهر وتبقى، أو يزهد فيها ويعرض عنها، فيدفع بها نحو التّلاشي والاندثار". (عبد المسيح، ص ٩٢) وقد رأى العالم الأندلسيّ الإمام "ابن الحزم" أنّ "اللّغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم". فيما يقول القدّيس "أوغسطين" في "مدينة الله": "إنّ **المدينة**

الإمبراطوريّة لا تفرض على الأمم الخاضعة لها سلطانها فقط بل تفرض عليها لغتها أيضًا". فالمسألة ليست مجرّد "ولع المغلوب بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده" على نحو ما صوّره العالم الاجتماعيّ العربيّ "ابن خلدون" بعد القدّيس "أوغسطين" بتسعة قرون، بل قد يكون سياسة قهريّة من الغالب تجاه المغلوب في شكل "إمبرياليّة لغويّة" من النّوع الّذي تحدّث عنه "روبرت فيليبسون" (Robert Phillipson) في كتابه (Linguistic Imperialism). وقد لاحظ "ابن خلدون" تراجع إتقان اللّغة العربيّة في الأندلس بتضعضع الوجود السّياسيّ العربيّ فيها... أيّام تغلّب النّصرانيّة. كذلك يقول المؤرّخ والمفكّر السّوريّ "قسطنطين زريق": "إنّ الحضارات عندما تتواصل يؤثّر بعضها في بعض. وإنّ التّأثير يسري عادة من الحضارة الأقوى والأرقى إلى الحضارة الأضعف والأكثر تخلّفًا، أو من الغالب إلى المغلوب... على أنّ الأمر يكاد يختلف في العصر الحاضر، فالشّعوب المتقدّمة في ميادين الحضارة هي نفسها المتغلّبة على سواها والمتفوّقة عليها قوّة وتسلّطًا".

إنّ هذا الارتباط بين قوّة الأمّة وقوّة اللّغة أصبح مسلّمًا به اليوم في العلوم الاجتماعيّة. فلم يعد الباحثون النّابهون يرون قوّة اللّغة وضعفها مسألة لغويّة، بل يرونها عرضًا لواقع الأمّة النّاطقة بتلك اللّغة: قوّة وضعفًا، نهضة وانحطاطًا. ولعلّ "د. جون إدواردز" (John Edwards) على حقّ إذ لاحظ أنّ "وقوع أيّ لغة في دائرة الخطر غرض لأمور أكبر". وهو يقصد بتلك الأمور "انحسار القوّة وضعف الحصانة وذبول الاطّلاع الحضاريّ. فيما ذهب لغويّون معاصرون إلى حدّ القول إنّ اللّغة لا تموت لكنّها قد تُقتل على أيدي مَن يريدون قتل أمّة بعينها. فإذا وجد لدى القاتل دافع لتعمّد القتل يكون الأمر أخطر". (عبد المسيح، ص ٩٧)

إذًا، إنّ هذا الواقع يضعنا أمام المعادلة التّالية: لغة ضعيفة تساوي أمّة ضعيفة، مخترقة ثقافيًّا.وحرب الاختراق الثّقافيّ باتت معالمها شديدة الوضوح في حياة الإنسان العربيّ، وهي تسعى إلى التّسلّل إلى كوامن الذّات الفرديّة والسّيطرة عليها. وقد حدّد "إدواردز" غاية هذه الحرب الثّقافيّة وأدواتها وتحدّياتها بقوله: "أمّا المرمى فهو نسف مقوّمات الذّات، وأمّا المطية فهي تقويض اللّغة، وإنّ أهمّ تحدّ مرتبط بالازدواجيّة اللّغويّة هو تحدّي الانتماء". **وقد ذهب دارسون إلى أنّ الازدواجيّة اللّغويّة تؤدّي إلى نوع من انشطار الذّات. ما يُشعر الإنسان العربيّ بحالة من التّخبّط في استلاب لغويّ.** وقد دافعت عن هذا المنحى الباحثة الفرنسيّة "ميشيل كوڤن" (Michèle Koven) في دراسة تطبيقيّة لها على النّاطقين باللّغتين الفرنسيّة والبرتغاليّة، وتوصّلت إلى أنّ النّاطق بلغتين يحمل ذاتين متمايزتين، ويعيش نفسيًّا

في عالمين مختلفين. (عبد المسيح، ص ٩٣، ٩٨) هذا الأمر كان قد ذكره إمام الأدباء في العصر العبّاسيّ "الجاحظ"، عندما قال في كتابه "البيان والتّبيين": لغتان إذا التقتا في اللّسان الواحد أدخلت كلّ واحدة منها الضّيم على صاحبتها. كذلك "ابن خلدون" حين قال في "مقدّمته": "إذا تقدّمت في اللّسان ملَكَة العجمة صار مقصّرا في اللّغة العربيّة". لقد تبيّن فعلًا أنّ أيّ لغة إذا فقدت قوّتها الواقعيّة الوظيفيّة، ولم يبق لها سوى قوّتها الثّقافيّة الرّمزيّة، فإنّ من السّهل عليها أن تفقد الأرضيّة لصالح لغات أخرى.

إنّ انحسار اللّغة العربيّة أمام اللّغات الغربيّة، اليوم، ليس سوى عرض لمرض أعمق يتعلّق بالهويّة والانتماء وانعكاس لإشكالات بنيويّة أكبر تتّصل بالشّرعيّة السّياسيّة والحقوق الفرديّة والجماعيّة ومكانة الأمّة العربيّة على المسرح الدّوليّ. وقد انطلق مفكّرو النّهضة العربيّة الأوائل من التّسليم بالعلاقة بين اللّغة والولاء، فعبّر اللّغويّ والأديب اللّبنانيّ "ابراهيم اليازجيّ" عن خشيته من أنّ دراسة الأطفال العرب للّغات الأجنبيّة في عمر مبكر تبني علاقة وطيدة بينهم وبين الأمم النّاطقة بتلك اللّغات، وتجعل ولاءهم لتلك الأمم أقوى من ولائهم للأمّة العربيّة.

إذًا، إنّ مشكلة العرب اليوم ليست في قوّة اللّغة. فاللّغة العربيّة من أقوى لغات الدّنيا وأبقاها. وإنّما المشكلة تكمن في لغة القوّة السّائدة في تعاطي الغرب مع العرب في الحروب اللّغويّة، ثمّ في ضعف العزائم السّياسيّة وقصور البصائر الثّقافيّة لدى واضعي السّياسات اللّغويّة في البلاد العربيّة. إنّ تراجع اللّغة العربيّة لصالح اللّغات الأوروبيّة خصوصا الإنكليزيّة والفرنسيّة يؤدّي إلى انحجابها التّدريجيّ من مجال التّداول وتحوّلها إلى مجرّد لغة شعائريّة لا قوّة لها سوى سلطانها الرّمزيّ. ما يوقع الأمّة العربيّة في دائرة الخطر من انتحار لغويّ يتّجه إليه العرب اليوم، فهم على مسافة قريبة من فاجعة حضاريّة قاتلة بسبب الضّمير الحضاريّ المتثائب الّذي يحملونه بين جنباتهم.

فكيف تتخلّص الثّقافة العربيّة وبالتّالي اللّغة العربيّة من السّبات الأكاديميّ والجمود الفكريّ والعمليّ والتّقاعص العلميّ؟ هذا ما سنعالجه في ما يلي، تحت عنوان "في الرّؤى والحلول".

ثالثًا: في الرّؤى والحلول.

لقد أشار السّياسيّ والكاتب الأميركيّ "صمويل هَنتنغتون" (Samuel P. Huntington) والمنظّر للعولمة الأميركيّة في كتابه "صراع الحضارات" إلى أنّ العالم يتوجّه نحو حرب حضاريّة تكون فيها القيم الثّقافيّة الرّمزية هي الحدود الثّقافيّة بين الحضارات وكلّ من ينتمي إلى هذه الهويّة المكوّنة من الدّين واللّغة والتّاريخ والتّراث الثّقافيّ. **فساحات المعارك الخالية والمستقبليّة هي الثّقافة، ومن يضع التّحصينات الثّقافيّة القويّة سينجح في ردّ**

الغزاة ويتحقّق ذلك بالتّصدّي للبرامج الفكريّة والتّصوّرات الّتي تبثّها وسائل العولمة. (بن عيّاش، ٢٠١٨، ص ٣٣٧) **إذًا، هناك غزاة، هناك خطر... ولا بدّ من تحصينات...** إلّا أنّ عمليّة وضع هذه التّحصينات مرتبطة بالسّياسة، وهي مهمّة دول وليس أفراد، وإن كان العمل الفرديّ يقدّر في هذه الحالات ويترك أثرًا مشجّعًا. فالمسألة مسألة قرار سياديّ، وسياديّ أوّلا، ثمّ مسألة هندسة اجتماعيّة وتخطيط تربويّ بعد ذلك.

من أبرز التّحصينات الّتي يمكن الرّكون إليها من أجل حلول ناجحة ورؤى وافية في إنقاذ الأمّة واللّغة، نذكر:

١. إحداث تغييرات جذريّة في البيئة الاجتماعيّة العربيّة ونظام الحكم.

إنّ المخرج من المجتمع الأبويّ، البطركيّ، وبالتّالي، مجابهة واقعه السّياسيّ والثّقافيّ، وإحداث عمليّة تغيير اجتماعيّ لا يمكن أن تحصل ضمن إطار هذا المجتمع الفكريّ والسّياسيّ ومن خلال لغته التّقليديّة، وأنظمته وقوانينه وقيمه وتقاليده الّتي لم يعد لها أيّ معنى سياسيّ أو اجتماعيّ في العصر الحاضر، بل **بالخروج من هذه الأطر الأبويّة، وإقامة مجتمع علمانيّ قائم على القانون... كذلك باستعمال لغة تختلف عن لغة السّلطة، لغة تكون قادرة على خلخلة الفكر المهيمن وإقامة أسس وعي جديد، من خلال التّحديث والتّجديد من داخل الوطن العربيّ، ومن داخل نظامه ورؤاه...**

وعمليّة التّغيير هذه، بما تحمله من توجيه فكريّ وسياسيّ، ومن استراتيجيّة ذات أبعاد متعدّدة، لا يمكن أن تتحقّق أهدافها إلّا في حالة من الاستقرار السّياسيّ والاجتماعيّ... كما أنّها لا يمكن أن تحصل إلّا على يد المثقّف، خصوصًا ذاك العامل في حقول التّربية والتّعليم والإعلام. فمسؤوليّته إزاء السّلطة تلخّص بالكلمة الّتي قالها المؤرّخ الفرنسيّ "فرانسوا جيزو" (François Guizot) في منتصف القرن التّاسع عشر: إنّ "مسؤولية المثقّف هي رفع الحقيقة بوجه السّلطة". وقد رأى الأديب والكاتب الفرنسيّ "لا برويير" (Jean de La Bruyère) أنّ "كلّ شيء يزدهر في دولة تمتزج فيها مصلحة الشّعب بمصلحة الحاكم"... وهي يجب أن تتمّ ضمن العمل العربيّ المشترك والتّنسيق بين جميع أقطار الوطن العربيّ. وهي ترتبط، إلى حدّ كبير، بعوامل داخليّة مختلفة، منها:

١-١ حصول تغيير جذريّ في الذّات الاجتماعيّة، بغية صنع ذات جديدة تبتعد في علاقاتها مع الآخرين عن السّيطرة والخضوع، وتعتمد على التّعاون والمساواة والعدالة والحرّية. وهذا كلّه لا يمكن أن يحصل إلّا من خلال التّغيير في تنشئة الطّفل. وهنا طبعًا تبرز أهمّية وضع أسس متينة لتربية سليمة تنشئ أجيالًا متحرّرين من تخلّف الأنظمة الأبويّة...

١-٢ تحقيق تحرير حقيقيّ للمرأة، ليس فقط على صعيد النّية الحسنة والخطب الرنّانة بل على مستوى القانون والممارسة الاجتماعيّة. وهنا أيضًا، لا بدّ للتّربية من دور مهمّ تلعبه

في هذا الإطار لتنشئة نساء واعيات، منفتحات، قادرات، متحرّرات من ترسبّات التّربية الأبويّة...

١-٣ تعزيز الأسرة الّتي هي السّلاح السّريّ الأوّل المتواجد داخل المجتمع البطركيّ والقادر على تغييره من الدّاخل... وفي وضع أسس النّظام الّذي يمكّن المرأة والطّفل والرّجل من تحقيق انتصارهم على النّظام البطركيّ وإقامة الأسرة الدّيموقراطيّة الّتي هي حجر الزّاوية في المجتمع الدّيموقراطيّ والعامل الأوّل في عمليّة التّغيير... فالأسرة تتحمّل المسؤوليّة القانونيّة والشّرعيّة تجاه الدّولة والمجتمع لتحفيز الأبناء والبنات على تعلّم اللّغة العربيّة الفصيحة وتحبيبها إليهم. ويتوجّب عليها تنمية قدراتهم ومعارفهم ومهاراتهم اللّغويّة لتأهيلهم اجتماعيًّا وتعليميًّا وثقافيًّا ووطنيًّا للاندماج في المجتمع والمشاركة بفاعليّة في المؤسّسات الوطنيّة الحكوميّة والأهليّة الّتي يعملون فيها أو يتعاملون معها. فتعليم اللّغة العربيّة، بشكل سليم، يجب أن يبدأ من المنزل...

١-٤ تأسيس ديموقراطيّة حقيقيّة يتمّ فيها تحرير الثّقافة من السّياسة، إذ إنّ السّياسة سلطة والثّقافة حرّية، والسّلطة تقتل الحرّية، تكبّلها وتلغيها... وخلق بعد ثقافيّ جديد يتماشى مع العصر من دون إلغاء الهويّة، وذلك بامتزاج الأصالة والمعاصرة، أو الثّقافة الجماهيريّة بالعالميّ...

وهذه العمليّة ستترك، من دون أيّ شكّ، آثارها الواضحة على متن اللّغة العربيّة الّتي ستحمل هذا التّغيير وتعبّر عنه. فعلماء الاجتماع يربطون اللّغة بالسّياق السّياسيّ والاجتماعيّ، معتبرين أنّها "سلوك اجتماعيّ يحدّده المجتمع في المقام الأوّل". (عبد المسيح، ص ٩٧)

٢- خلق خطاب نقديّ عربيّ مستقلّ قادر على تفعيل قوى التّغيير والتّطوّر.

يجب ألّا نفهم فكرة التّحديث على أنّها تنحصر في التّقدّم المادّيّ بالمعنى الّذي كان سائدًا في القرن التّاسع عشر، **لأنّ التّحديث الحقيقيّ يجب أن يحصل على كلّ الصّعد وتحديدًا على الصّعيد المعنويّ بمختلف وجوهه، فكريًّا وأدبيًّا وفنيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وبخاصّة لغويًّا...** يجب أن يتجلّى في وعي اجتماعيّ واضح الرّؤى والمظاهر. وهذا الوعي الاجتماعيّ لا يمكن أن يتبلور ويصبح خلّاقًا ما لم يقم على فكر نقديّ. **من هنا ضرورة خلق خطاب نقديّ عربيّ مستقلّ وقادر على تفعيل قوى التّغيير والتّطوّر في مجتمعاتنا العربيّة،** كما ضرورة نشر حرّيّة الفكر الّتي يجب أن تكون حاجة اجتماعيّة موضوعيّة لا يمكن من دونها تجاوز حالة التّخلّف والعجز الّتي نحن فيها، أو بلورة فكر مستقلّ أصيل قادر على الخلق والتّعبير، وعلى دفع الضّمير الاجتماعيّ نحو صحوة اجتماعيّة تعيد إلى العرب ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم الذّاتيّة على مجابهة المستقبل وتحدّياته.

ومن أبرز ما يمكن أن يقوم عليه هذا الخطاب النّقديّ أو يستند إليه هو:

٢-١ الأدب والفنّ. لقد أكّد الأديب المصريّ "توفيق الحكيم" في مسرحيّته "رحلة إلى الغد" الّتي تحتلّ مكانتها الرّياديّة في الأدب المستقبليّ، أنّ في الأدب خلاصًا للإنسانيّة. فيما **أشار المفكّر الألمانيّ "يورغن هابرماس"** (Jürgen Habermas) **أنّ هناك دورًا للأدب والفنّ في عمليّة النّقد والتّغيير. فالفنّ والأدب يكشفان لنا حياة الذّات والآخر والعالم،** بينما يكشف لنا العقل النّقديّ حقائق الواقع الاجتماعيّ ووسائل تغييره. أمّا الرّوائيّ الرّوسيّ "تولستوي" (Leo Tolstoy)، فقد قال إنّ "الأدب والفنّ يؤدّيان إلى تطوّر الشّعور، ويمكّنان الإنسان من أن يطرح العنف جانبًا. إنّ واجبهما عظيم، وهما ضرورة، وضرورة ماسّة، وارتباطهما بالطّبيعة البشريّة وثيق ومؤثّر جدًّا". فالفنون الجميلة والشّعر والموسيقى من أهم مقوّمات الثّقافة وأقدرها على تهذيب الذّوق، وبالتّالي، على تسهيل التّلاقي والمشاركة والتّحاب والاتّحاد. فالفنّ أقرب الطّرق بين الإنسان والإنسان. وحضارة الأمم ويقظتها تقاس بمكانة الفكر ومنزلة الفنّ فيها ودور الأدب في حياتها... **والمفكّرون والأدباء والفنّانون هم الّذين يحقّقون هذه اليقظة ويصونون القيم العالية ويحفظون التّقاليد السّامية، وبهذا تكون اللّغة في أمان...** ومن أفضل ما يمكن أن يوضع من شروط وضوابط لجعل الفنّ والأدب ناجحين مؤدّيين لوظيفتهما على أكمل وجه:

- **تأمين معاهد وجامعات للتّخصّص الفنّيّ والأدبيّ، والحرص على مستوى عال في الشّهادات** ليصبح لدينا فنّانون وأدباء صالحون، ويختفي جيش المتطفّلين الّذين يفسدون الذّوق ويشوّهون الفنّ ويؤذون الأدب.
- **الحرص على أن يكون هناك مستوى أدبيّ وفنّيّ عال، على مستوى المعنى والمبنى، والنّصّ والموسيقى...** وبالتّالي، **تقديم المستوى الفنّيّ والأدبيّ على الكسب التّجاريّ،** وذلك من خلال لجنة فنّيّة وأدبيّة تدقّق في الأعمال الأدبيّة والفنّيّة، فلا يُقبل أيّ منتج إلّا إذا كان ضمن الشّروط المطلوبة، فالعمل الأرقى ليس الأربح....

إذًا، يمكن للأدب والفنّ، إذا توفّرت فيهما الشّروط اللّازمة، **أن يساعدا في تعزيز مكانة اللّغة العربيّة الفصيحة وتقريبها من النّفوس ونشرها وترويجها...** ولدينا في هذا المجال مثال أدب النّهضة في لبنان ومصر، ومثال فنّيّ معاصر واضح يؤكّد نجاح الفنّ النّاطق باللّغة العربيّة الفصيحة نجاحًا باهرًا، ألا وهو الفنّان العراقيّ "كاظم السّاهر" الّذي نجح في أن يكون الكمّ الأكبر من أغنياته قصائد باللّغة الفصيحة ذات قيمة أدبيّة وفنّيّة، كما نجح في تقريب هذا النّوع من الفنّ من ذائقة المتلقّي العربيّ وفي نيله حظوة عنده لا بل التّقدير والاحترام...

٢-٢ الإعلام. إنّ هذا الخطاب النّقديّ يستند أيضًا إلى الإعلام كمنبر يقرّب اللّغة العربيّة من المتلقّي. فلغتنا العربيّة في حاجة ماسّة إلى الإثراء الفكريّ والحضاريّ والتّقارب في المستويات الفكريّة، ويقتضي ذلك أن نستخدم اللّغة العربيّة في ميادين الحضارة الحديثة بعلومها المختلفة. وتبعة ذلك تقع على وسائل الإعلام بالدّرجة الأولى، لأنّ لغتها في مستواها العمليّ الاجتماعيّ هي لغة الحضارة.

يشهد عالم اليوم اهتمامًا متزايدًا بالإعلام ووسائله وإيمانًا صادقًا برسالته وأهدافه، ذلك أنّ الإعلام في العالم الحديث يتطوّر تطورًا مذهلًا، نتيجة للتّقدّم التّكنولوجيّ في فنون الاتّصالات وعلوم الإلكترونيّات وفنون الطّباعة. وإذا كنّا ندرك ارتباط الإعلام بالحياة، فإنّنا نجد أنّ التّأكيد فيه مواز من ناحية علاقة مهارات الاتّصال بالحياة. فالمحرّر الكفؤ لا يغفل دور اللّغة في العمليّة الإعلاميّة. إنّ الإعلام فنّ حضاريّ، وقد يكون حلًّا لصياغة المعرفة بطريقة عمليّة واقعيّة. وهنا، يقول الكاتب الأميركيّ "والتر ليبمان" (Walter Lippmann): إنّ المجتمع الحديث لا يقع في مجال الرّؤية المباشرة لأحد، كما أنّه غير مفهوم على الدّوام، وإذا فهمه فريق من النّاس فإنّ فريقًا آخر لا يفهمه، وهكذا تغدو لغة الإعلام لغة حضاريّة تسعى للشّرح والتّفسير والتّكامل. (شرف، ١٩٩١، ص ١٠٠) من الملاحظ أنّ الإنسان في حياتنا المعاصرة يتعامل مع وسائل الإعلام المتعدّدة في مختلف مناحي حياته فلا يكاد يمرّ يوم أو ساعة من دون أن يقارب المرء هذه الوسائل ويمضي برفقتها ساعات طوال... **ممّا يؤكّد تأثيرها في ذات هذا الإنسان وفي تشكيل كينونتها... هذا الواقع يستدعي، وبشكل ضروريّ، اعتماد الفصيحة لغة وحيدة مستخدمة في جميع مؤسّسات الإعلام الموجّه للمواطن العربيّ، والحرص على حضور هذه اللّغة في كلّ الأعمال الإخباريّة والفنّيّة، وفي إنتاج البرامج الدّراميّة** الّتي تخاطب الجميع، وبخاصّة الأطفال، كما في الإعلانات والنّشرات والمطبوعات والمواقع الإلكترونيّة... وهذا الواقع يستدعي اشتراط إتقان العربيّة في التّوظيف في جميع المؤسّسات الإعلاميّة، كما إقامة دورات مكثّفة للعاملين فيها من أجل تعزيز اللّغة العربيّة الفصيحة عندهم. **كما يستدعي هذا الأمر محاربة العربيزي على مواقع التّواصل الاجتماعيّ بكلّ جدّيّة ومسؤوليّة، والتّحفيز في المقابل على استخدام العربيّة الفصيحة، أو، على الأقلّ، الحرف العربيّ للتّعبير عن اللّهجات المحكيّة...**

٢-٣ التّفكير في المستقبل. ومن الأسس الّتي يقوم عليها أيضًا هذا الخطاب النّقديّ التّفكير في المستقبل والتّخطيط له. فمفهوم المستقبل عند العرب الموجود ضمنيًّا في كثير من المعاجم يتجلّى في ألفاظ: كالسّنوات والأيّام والدّهر والحال والزّمن والغد والغيب... وفي الثّابت أنّ التّفكير المستقبليّ في حضارة العرب وفكرهم وتاريخهم قد اتّخذ أشكالًا غير علميّة

تمثّلت في قراءة الطّالع والتّنجيم والعرافة. أمّا "مصطلح المستقبليّة (futurology) فهو الشّائع في الغرب الرّأسماليّ وقد ظهر ليعني التّبشير ببعض عناصر المستقبل وجزئيّات صوره... وارتبط بالثّورة العلميّة والحداثة التّكنولوجيّة". (الجبر، ٢٠١٠، ص ١١٢) فقد تجاوز الغرب الاهتمام بالماضي والحاضر مركّزًا الجهود على المستقبل كبعد من أبعاد الزّمن والحاضر في آن واحد. ويشهد التّاريخ على أنّ المستقبل هو مركز الصّدارة بالنّسبة إلى الماضي. وربّما كان ذلك ما يعنيه الفيلسوف الألمانيّ "هيغل" (Georg W. F. Hegel) في قوله: **إنّ المقولة الأولى من مقولات الوعي التّاريخيّ لا يمكن أن تكون هي الذّاكرة أو التّذكّر بل هي التّرقّب أو الانتظار والرّجاء أو "الاستباق". فالإنسان أراد أو لم يرد موجود يعيش في الزّمان بين الـ "قبل" والـ "بعد"، بين الماضي والمستقبل.** كذلك ما يقوله الفيلسوف الفرنسيّ "باسكال" (Blaise Pascal): "إنّنا لا نفكّر تقريبًا في الحاضر، وحينما نفكّر فيه فما ذلك إلّا لكي نستمّد منه النّور الّذي يسمح لنا بأن نتصرّف في المستقبل. وليس الحاضر بغاية على الإطلاق فإنّ المستقبل وحده هو غايتنا". **فالمأزق التّاريخيّ الخطر الّذي يعيشه العرب في الوقت الرّاهن يحتاج إلى وقفات من التّأمّل الجدّيّ العميق والصّريح، يتمّ فيها نقد الذّات ومراجعة الماضي وتحديد المعوّقات والآفات حتّى يمكننا النّهوض من كبوتنا التّاريخيّة والتّوجّه بغير إبطاء إلى حالة ثقافيّة يتعزّز فيها التّواصل النّشط مع الآخر والتّخطيط للمستقبل.** وهكذا يبدو سؤال الفكر العربيّ والمستقبل سؤالًا وجوديًّا قبل أن يكون معرفيًّا وسياسيًّا باعتبار الوعي والنّقد استراتيجيّة التّغيير والمستقبل لا الاستسلام والالتزام. ومن هنا كان على الفكر العربيّ المعاصر بكلّ آليّاته وأدواته أن يدخل عالم المستقبل بحثًا عن موقع مميّز فيه. فالمهمّة الكبرى المطروحة على الفكر العربيّ المعاصر حيال المستقبل والتّحدّيات المعاصرة تكمن في ما يمكن أن نسمّيه **ابتداع أصالة عربيّة مستقبليّة تعيد الزّخم والتّماسك إلى التّاريخ العربيّ المتّصل الّذي تعود جذوره إلى الثّقافة العربيّة، وتفهمه فهمًا تاريخيًّا نقديًّا عقلانيًّا عميقًا، كما تستوعب حقائق العالم المعاصر وعناصره، وتستشرف آفاق المستقبل وتفهمه بدقّة. وهذا الأمر يعتبر المدخل إلى قيام هويّة عربيّة متميّزة ومتفاعلة مع معطيات الحاضر والمستقبل.**

٢-٤ الإنسان العربيّ العارف والمنتج والرّائيّ. لا يمكن بلورة هذا الخطاب النّقديّ إلّا من خلال إبراز أهميّة الإنسان العربيّ العارف والمنتج والرّائيّ... فـ "المعرفة قوّة والأمّة العارفة هي الأمّة القويّة. من هنا تأتي ضرورة الاهتمام بالإنسان الّذي هو العنصر الفاعل في الحضارة ومقصدها في الوقت نفسه، كما أهميّة رفع العوائق والأسوار عن الطّاقات والمكامن العقليّة والرّوحيّة والنّفسيّة والأدبيّة للمجتمعات العربيّة، وتوفير آليّات الإبداع

والخلق والكشف عن مستويات اللّحظة الإنسانيّة في الإنسان". (الجبر، ٢٠١٠، ص ٩٤) فالعقل والمدنيّة هما ما يميّزان الإنسان ويحوّلانه من مجرّد كائن مستهلك إلى كائن منتج له دوره ومكانته في عمليّات التّطوّر والتّقدّم والتّحوّل الاجتماعيّ، إلى كائن مبادر متحفّز الإرادة ومفعم بالأمل، يتعلّم فاعلًا وينمو متفاعلًا فيبدع ويعطي ويتألّق ويماشي عصره... فكلّ علم عصريّ يحتاج إلى عقول عصريّة، إلى رجال عصريّين... **من الضّروريّ أن يعرف الإنسان العربيّ قيمة المعرفة في هذا الزّمن ودورها في تطوير كيانه وصقل وجوده، فيسعى للتّزوّد منها ولتفعيل مراكزها في بيئته، من مدارس ومعاهد وجامعات ومراكز أبحاث ومختبرات ومنتديات ومكتبات...** من الضّروريّ أن يعرف أهمّية أن يكون إنسانًا صاحب رؤية، أن يخطّط للمستقبل ويرسم ما يجعل مصيره مزدهرًا وثابتًا في موكب التّطوّر والرّقي... **أن يفهم أهمّية لغته في كلّ هذا، ويعي مسؤوليّته من نحوها، فيعمل على رفدها بكلّ ما ينتشلها من حالة السّبات الّتي وضعها فيها... عليه أن يعمل ليكون إنسانًا عارفًا ومنتجًا ورائيًا، لكي تتحسّن لغته وتكون لاحقة به وبما سينجزه،** إذ، بحسب "ابن الحزم"، لا تموت اللّغة لنضوب مفرداتها أو جفاف مجازاتها، وإنّما تموت بموت إنسانها تحت قهر الظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة... واللّغة العربيّة ليست متخلّفة بل هم أهلها الّذين ألقوا بظلال هذا التّخلّف على المجتمع والثّقافة واللّغة... وهي ليست عاجزة، وإنّما العاجزون هم أبناؤها. والمؤلم أنّ بعضهم عاجز عن عجز، فيما بعضهم الآخر عاجز عن قصد، بحيث يتساوون جميعا في الإساءة إليها.

٢-٥ الاعتماد على المثقّف. إنّ للمثقّف دورًا كبيرًا في تشكيل هذا الخطاب النّقديّ وفي إنجاحه. فعليه تقع هذه المسؤوليّة الكبرى، إذ عليه أن يفسّر لمجتمعه كيف يعيد قراءة التّاريخ لكي يتفهّم الحاضر ويتلمّس أسلوب تجاوزه... وكيف يعيد النّظر في المفاهيم الأساسيّة فيصوغها من جديد... **لقد آن الأوان لانبثاق صحوة المثقّف ووعيه لدوره كطرف أساسيّ في عملية الصّراع المعرفيّ والإيديولوجيّ داخل المجتمعات العربيّة، ولمهمّاته المعاصرة الّتي باتت مهمّات نضاليّة تتعامل بروح نقديّة مع الواقع والسّلطة والتّراث والمعاصرة واللّغة...** فقد ولّى زمن الثّقافة التّرفيهية وثقافة الصّالونات الأدبيّة، وجاء الآن دور الثّقافة الجادّة أو المقاتلة من أجل تعميم الدّيموقراطيّة وتخليص الإنسان العربيّ من حال الاستلاب. فالمثقّف الّذي يرفض الاستبداد يؤسّس في الوقت ذاته لواقع الدّيموقراطية، لأنّ الرّفض هو فعل نقيض لما هو قائم. **والمثقّف الّذي يحتاج إليه المجتمع العربيّ هو "المثقّف المبدئيّ الّذي يتميّز بالاستقامة ويرفض الهيمنة مهما كان مصدرها، ويحمل هموم مجتمعه ويبتعد عن المفهوم النّخبويّ وينتج خطابه الثّقافيّ المبدع والملتزم بقضايا الجماهير العربيّة،**

بعد أن أفلس الخطاب السّياسيّ العربيّ وانكشف زيفه. إذ إنّ مبرّر وجود الثّقافة هو في خطابها الثّقافيّ وفعلها الإبداعيّ نحو كشف الزّيف وتعريته". (الجبر، ٢٠١٠، ص ٢٠٤) وهنا لا بدّ من طرح سؤال منطقيّ ووجيه، ألا وهو: من هم المثقّفون؟ في الحقيقة، إنّ المثقّفين، بعامّة، لا يشكّلون طبقة اجتماعيّة واحدة. فهم، "كأفراد، ينتمون إلى طبقات اجتماعيّة واقتصاديّة مختلفة، ويجمع بينهم ما ندعوه الثّقافة أي كونهم مثقّفين. إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ المثقّفين هم حملة الشّهادات الجامعيّة أو الكتّاب أو المفكّرون البارزون، فهناك مثقّفون لا تتعدّى ثقافتهم المدرسيّة الثّانويّة، وهناك حملة شهادة الدّكتوراه لا ثقافة حقيقيّة لهم". (شرابي، ٢٠٠٠، ص ١٩١) فما يصنع المثقّف الحقيقيّ ليس علمه أو مركزه الاجتماعيّ، بل موقفه الفكريّ وتوجّهه الاجتماعيّ. المثقّفون الملتزمون يشكّلون نخبة مميّزة في المجتمع، يستمدّون قوّتهم بالاستقلال الذّاتيّ عن النّخبة الحاكمة والنّخبة المتموّلة. مصدر تأثيرهم، في عمليّة التّغيير الاجتماعيّ، هو امتلاك المقدرة على التّحليل والتّعبير والنّقد... كما الوسائل لتغيير الوعي الاجتماعيّ والقيادة الفكريّة... إنّ لهؤلاء المثقّفين دورًا كبيرًا في تفعيل هذا الخطاب النّقديّ بشرط أن يكون الأمر من أولويّاتهم فيناضلون من أجله...

٣. المحافظة على الشّخصيّة والهويّة الثّقافيّة.

يرى بعض اللّغويّين المعاصرين أنّ "الازدواجيّة اللّغويّة منتجة للمرونة العقليّة والثّراء الثّقافيّ، ومفجّر يعيد الحركة للعالم الثّقافيّ". (عبد المسيح، ص ٩٩) وهذا كلام صحيح إذا لم تكن هذه الازدواجيّة على حساب اللّغة الأمّ والشّخصيّة والهويّة الثّقافيّة، إذا لم تكن على حساب الانتماء والأصالة والمواطنة الحقيقيّة... **فمعظم الازدواجيّات اللّغويّة تؤدّي إلى انشطار الذّات وتشرذم الشّخصيّة والهويّة، ناهيك عن ضياع هذه الهويّة في مهبّ رياح العولمة...**

هذا الواقع يفرض علينا ضرورة الحفاظ على الهويّة لتعزيز وجودنا وتفعيل عودتنا إلى دائرة الفعل... ولخروجنا من أزمة التّبعيّة... وهذا كلّه لا يمكن أن يحصل من دون تبلور هويّة المجتمع وإثبات الكيان والوجود والتّمسّك بالذّات الأصيلة والانتماء، بالإضافة إلى التّراكم التّاريخيّ الّذي يُعتبر ضروريًّا لصنع الهويّة الثّقافيّة لأنّها، في النّهاية، "المستوى النّاضج الّذي بلغته المجموعات البشريّة نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها وبين الظّروف التّاريخيّة الّتي مرّت بها". (بن عيّاش، ٢٠١٨، ص ٣٢٥) فنظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين وعلاقته بالمجتمع والكون تنبني على أسس فكريّة تشكّل سمة هذا الإنسان الّذي كلّما تحرّر من التّبعيّة استطاع أن يبني نموذجه الخاصّ والملائم لواقعه. فكلّما افتُقدت الخصوصيّة اتّسم الإنتاج بالمماثلة وفقد الفرادة. **أمّا التّعميم الثّقافيّ فإنّه سيفرض**

ثقافة الأقوى، وهي ثقافة أحاديّة الجانب لا تقبل التّبادل والتّنوّع أو هكذا ستتشكّل تلقائيًّا. ولأنّ للمثقّف دورًا كبيرًا في هذا المجال، فهويّته رهن بالتزامه قولًا وعملًا بالفكر الّذي يطرحه كفعاليّة تتحوّل إلى قوّة ماديّة حين تعتنقه الجماهير على حدّ تعبير "كارل ماركس" (Karl Marx). والتزام المثقّف بقضايا الجماهير لا يعني الحزبيّة بمعناها الضّيّق بقدر ما يعني الانتماء بمفهومه الشّامل الواسع. وفعاليّة المثقّف الملتزم تتمثّل في دفاعه عن قضايا الجماهير وفي محاربته للأفكار السّلفيّة والرّجعيّة الّتي تطرحها الطّبقات والفئات المحافظة وفي مناهضته للمخطّطات الإمبرياليّة ومفاهيمها الإيديولوجيّة الّتي تتسرّب إلى المجتمعات العربيّة عبر أقنية اقتصاديّة وثقافيّة وإعلاميّة عديدة.

في كلّ حال، **لا يمكن تأسيس أيّ هويّة ثقافيّة بمنأى عن اللّغة. فاللّغة تعدّ من "أهمّ ركائز الهويّة للأمم المختلفة، لا بل هويّة من الهويّات المركزيّة في حياة الإنسان. هي ليست مجرّد أداة للتّواصل، بل هي أيضًا هويّة مشحونة بالقيم والوجدان وكنز اجتماعيّ يضيع بضياع قوّة المجتمعات وفتوّتها"**. (عبد المسيح، ص ٩٧) ففي الدّراسات المعاصرة حول الهويّة تبيّن أنّ اللّغة محوريّة في بناء الهويّة، وهي أهمّ وعاء للثّقافة والقيم وأرسخ قاعدة لتأسيس المؤسّسات وبناء الأمم. وقد لاحظ الأديب اللّبنانيّ الفرنسيّ "أمين معلوف" أنّه "لا يوجد ما هو أخطر من السّعي إلى قطع الحبل السّريّ الّذي يربط الإنسان بلغته. فهو عندما ينقطع أو يضطرب بشدّة ينعكس ذلك بشكل مدمّر على مجمل الشّخصيّة". واللّغة، بحسب العالم اللّغويّ "ميشال زكريّا" هي، على مستوى الماضي، الذّاكرة الجماعيّة... وعلى مستوى الحاضر، هي خير معبّر عن الهويّة القوميّة للأمّة... وعلى مستوى المستقبل هي طريق وحيدة لكلّ نموّ، وصلاح الأفراد والمجتمعات مرهون بصلاح اللّغة...

وفي انتقالنا للكلام على اللّغة العربيّة، نستطيع أن نقول "إنّها الرّكيزة الأولى لبناء الكيان الوطنيّ ولتآخي المواطنين ولاستقرار الحياة العامّة وتوحيد التّفكير الوطنيّ". (موسى، ص ١٨٠) واهتمامنا بها لا علاقة له بالتّطوّر والتّخلّف فقط، بل له علاقة بأن يعدّ العربيّ نفسه موجودًا أو غير موجود... فإذا عرف قيمة وجوده في هذا العالم وقيمة هوّيّته العربيّة لاستطاع أن يقدّر لغته الأم، وأن يحافظ على بقائها بعده وينقلها لسائر النّاس حتّى يزرع فيهم حبّ التّداول بها. وفي لبنان، تحديدًا، إنّ دور اللّغة العربيّة في تأصيل المفهوم الوطنيّ كبير لا بل جوهريّ، وهو أمر قاله كبار مفكّرينا وأدباؤنا في زمن النّهضة، من أمثال المعلّم "بطرس البستانيّ" والشّيخ "ابراهيم اليازجيّ" و"أمين الرّيحانيّ" و"جبران خليل جبران"و"مارون عبّود" وغيرهم الكثير ...

٤. بناء نظام تربويّ متطوّر، خادم ومعزّز للّغة العربيّة.

إنّ للمؤسّسات التّربويّة الدّور الأبرز والأهمّ في تفعيل اللّغة العربيّة وتعزيز مكانتها في حياة أبنائها، إذ هي، دون سواها، الّتي تُنشئ الأجيال وتبني فيهم الإنسان وتؤسّس الهويّة... لكنّ هذه المؤسّسات، في معظم دولنا العربيّة، تركّز على التّعليم فيما لا تولي شأنًا كافيًا للتّربية. إلّا أنّ المهمّ أن نتربّى لا أن نتعلّم فقط، لأنّ "التّعليم هو تخزين، فيما التّربية هي تكوين، هي صناعة الإنسان وإعداد المواطن المسؤول". (موسى، ص ١٣) التّعليم يستهدف إصلاح الفرد فيما التّربية تستهدف إصلاح الوطن. ونحن، كعرب، وكلبنانيّين على وجه التّحديد، من أكثر الشّعوب حاجة إلى الوطن، لأنّنا، حتّى اليوم، عرفنا أوطانًا ولم نعرف وطنًا جامعًا حقيقيًّا. فالتّربية، في هذه المجتمعات، مدعوّة إلى إحداث تغييرات جذرية في بيئتها وفي مضمونها الاجتماعيّ والأخلاقيّ والاقتصاديّ... وبالتّالي، عليها أن تعمل على:

٤-١ تعزيز المواطنة وترسيخها في الذّات العربيّة. وهذا الأمر يتطلّب بالدّرجة الأولى إحياء اللّغة القوميّة أي اللّغة العربيّة واحترامها والتّركيز عليها في الحياة الاجتماعيّة كما في الحياة الأكاديميّة، لأنّها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمواطنة لا بل التّمسّك باللّغة هو جزء لا يتجزّأ من المواطنة لأنّها تجسيد حقّ للانتماء...

٤-٢ ترسيخ التّعليم الذّاتيّ وتهيئة الفرصة أمام الأجيال لإعداد مستمرّ ومتواصل ومتغيّر مدى الحياة، وذلك بما يلبّي حاجات المجتمع وأسواق العمل، والّتي عادة ما تكون في تغيير مستمرّ لا تمكن مواكبته بالأساليب التّقليديّة... بشرط أن يكون هذا التّعليم، أو معظمه، باللّغة العربيّة الفصيحة...

٤-٣ الابتعاد عن طرق التّعليم التّقليديّة الرّوتينيّة والتّلقينيّة، والاهتمام بنظم تعليميّة حديثة ومتقدّمة، ووضع برامج ذات جودة عالية لتنمية مهارات اللّغة العربيّة، واستحداث مناهج وبرامج تعليميّة تواكب العصر وتقارب مسألة تعليم اللّغة العربيّة بأسلوب متطوّر بعيد عن التّلقين، معتمد على التّفكير والتّحليل والإبداع والتّكنولوجيا، كفيل بأن يقرّب هذه اللّغة من نفوس المتعلّمين. وخضوع هذه المناهج والبرامج لمراجعة لغويّة ومنهجيّة تشمل المحتوى والإخراج والطّباعة، وبشكل مستمرّ، من متخصّصين كفوئين، هو أمر واجب وضروريّ لضمان جاذبيّتها وسلامتها وسهولتها ومناسبتها للمراحل العمريّة للمتعلّمين... كما التّركيز على جماليّات اللّغة العربيّة والاهتمام بها من باب التّحفيز عليها، وذلك بتدريس مادّة الخطّ العربيّ على سبيل المثال لا الحصر، لأنّه من سمات القوّة والجمال اللّذين تتميّز بهما هذه اللّغة.

بكلام آخر، نستطيع أن نقول مع السّياسيّ والفيلسوف البوسنيّ "علي عزّت بيغوفيتش"

(Alija Izetbegović): **"حين نعلّم الإنسان التّفكير فإنّنا نحرّره، وحين نلقّنه معارف جاهزة نضمّه إلى القطيع".**

٤-٤ تطوير أقسام اللّغة العربيّة في المدارس والمعاهد والجامعات وخططها ومجالات عملها ووضع معايير علميّة لضمان جودة المادّة وطرق تعليمها... وتأمين كلّ ما يمكن أن يحفّز على تعلّم اللّغة العربيّة وينظّم مقارباتها، كإقامة مسابقات لغويّة تنافسيّة على مستوى المدارس والمراحل التّعليميّة ثمّ على المستوى الوطنيّ والعربيّ...

٤-٥ ضرورة اعتماد تقارير سنويّة في جميع المراحل التّعليميّة تقيّم وضع المتعلّمين ومستوياتهم اللّغويّة، و تحدّد قدراتهم اللّغويّة وتشخّص الصّعوبات الّتي يواجهونها وتضع الحلول المنقذة والمناسبة.

٤-٦ تنظيم دورات تدريبيّة وورش عمل على المستوى الوطنيّ تكون قائمة على مخطّط متكامل وموضوعة من قبل متخصّصين يراعون الاحتياجات اللّغويّة، وبهذا يتدرّب جميع المعلّمين والمعلّمات وبالمستوى نفسه. كما من الضروريّ أن يقتصر تدريس مقرّرات اللّغة العربيّة على المتخصّصين، وأن **توضع اختبارات دوريّة لقياس كفاءة المعلّمين والمعلّمات** في المدارس والمعاهد والجامعات، والعمل على رفع المستوى الماليّ والمعنويّ لهم لكي يؤدّوا دورهم كما يجب بعيدًا عن أيّ فساد أو تقصير... **كما العمل على تعزيز فكرة الرّسالة في ما يؤدّونه لا الوظيفة، لأنّها الكفيل الأساسيّ في بناء الإنسان...**

٤-٧ اعتماد اللّغة العربيّة الفصيحة في التّدريس، وذلك في مختلف الصّفوف، بدءًا من الحضانة وصولًا إلى الصّفوف الجامعيّة. وتحقيق الْمَلَكة اللّغويّة العربيّة في مراحل التّعليم الابتدائيّ، لا بل في صفوف الحضانة، ثمّ إدخال اللّغات العالميّة في النّظام التّربويّ بعد ذلك، مع استمرار التّعليم العالي بالعربيّة حتّى لا تقع ضحيّة زحام غير متكافئ. فاللّغة الأصليّة تعتبر الوسيلة الطّبيعيّة الأكثر فعاليّة في التّعليم ويتوقّف نجاح المتعلّم عليها، فهو يتشبّع بها لصياغة ذاتيّته قبل أن يتوجّه نحو الثّقافات الأخرى للتّعرّف إليها. و"منظمّة الأونسكو، وهي المنظّمة العالميّة للتّربية والثّقافة والعلوم، ما فتئت منذ عقدين من السّنين وأكثر تدعو الدّول جميعًا، والدّول النّامية بخاصّة، إلى اعتماد اللّغات الوطنيّة في تدريس العلوم والرّياضيّات مستهدفة وحدة الشّعوب في هذه البلدان. وقد قضى المرسوم الوطنيّ اللّبنانيّ رقم ٩٠٩٩ تاريخ ٦٨/١/٨ بصراحة بتدريس الموادّ العلميّة والفكريّة كلّها باللّغة العربيّة ما عدا موادّ التّعليم الأجنبيّة" (موسى، ص ١٦) إلّا أنّه ليس هناك توثيق واضح يؤكّد تنفيذ هذا المرسوم ويدرس نتائجه... ويذكر الأستاذ "محمّد علي موسى"، وهو أحد مؤسّسي المركز التّربويّ، في كتابه "اللّغة العربيّة والوحدة الوطنيّة" أنّ كلّية الطّبّ في الجامعة الأميركيّة في بيروت

اعتمدت التّدريس باللّغة العربيّة منذ تأسيسها عام ١٨٦٦، وأطاعتها اللّغة العربيّة في عمليّة التّدريس هذه. وبدأت الجامعة الأميركيّة في بيروت تخرّج الأطباء الدّارسين باللّغة العربيّة منذ العام ١٨٧١. وخلال اثنتي عشرة سنة أخرى انتشر العشرات من خرّيجيها في المدن وفي القرى، ليس في لبنان وحده، بل في معظم بلدان الشّرق الأوسط والشّرق العربيّ بخاصّة... كان المرسلون الأميركيّون أنفسهم وفي طليعتهم "كورنيليوس فانديك" (Cornelius Van Dyck) و"جورج بوست" (George Post) و"يوحنا وورْتابت" (John Wortabet) و"إدوين لويس" (Edwin Lewis) هم الدّعاة المتحمّسون للتّعليم بالعربيّة. ولو استمرّ التّدريس باللّغة العربيّة منذ ١٨٦٧ إلى يومنا هذا، واستمرّت مواكب الأطبّاء والصّيادلة تتخرّج في الجامعة الأميركيّة وبعدها في الجامعات العربيّة كلّها، وتُعَزِّزُ اللّغة العربيّة بالمؤلّفات والأبحاث العلميّة، لكان موقعنا اليوم في خريطة الحضارة العالميّة الحديثة في مكان آخر، مختلف كلّيًّا. إنّها فترة كافية لأن تجعل حضارة الشّرق العربيّ أكثر تطوّرًا من حضارة أميركا وأوروبا، أو موازية لهما على الأقلّ، ولما أمكن اتّهام اللّغة العربيّة بالعجز والتّقصير. هذا التّصوّر بالذّات هو الّذي أرعب الأميركيّين يومذاك، وقد أدركوا أبعاده ولم يدركها العرب... ويذكر الكاتب "محمّد علي موسى" أنّ مخطوطة باللّغة الإنكليزيّة موجودة في مكتبة الجامعة الأميركيّة في بيروت حول تاريخ كلّية الطّبّ، صاحبها "أنطوان زحلان" جاء فيها ما معناه: "إنّنا، أي الأميركان، إذا استمررنا في تدريسهم باللّغة العربيّة (أي اللّبنانيّين والعرب) فلسوف يأتي يوم لا نستطيع فيه السّيطرة عليهم". ويضاف إلى ذلك المجابهة الّتي قادها "كورنيليوس فانديك" في وجه التّوجّه الجديد والّتي بلغت حدّ استقالته أو صرفه من الكلّية واللّجوء إلى مستشفى الرّوم حيث أقام كلّيّة للطّب أو ما يشابهها، واستمرّ يدرّس فيها وفي منزله بالعربيّة فترة من الزّمن. (موسى، ص ٦٣)

٤-٨ تفعيل القراءة أو المطالعة باللّغة العربيّة وجعلها عادة يوميّة يلجأ إليها كلّ مواطن عربيّ، فهي وحدها قادرة على تمكين الإنسان العربيّ باللّغة العربيّة، وإقامة كلّ ما من شأنه أن يفعّل هذه العادة ويعزّزها عند الجميع... يقول عميد الأدب العربيّ الدّكتور "طه حسين" "إنّ القراءة خير ما يوجّه إلى الأفراد والجماعات في جميع الأمم والشّعوب، وفي الشّعوب العربيّة بوجه خاصّ، بل هو خير ما وجّه إلى الإنسان منذ تحضّر إلى الآن". لا نعرف شيئًا يحقّق للإنسان تفكيره وتعبيره ومدنيّته كالقراءة فهي تصوّر التّفكير على أنّه أصل لكلّ ما يقرأ وعلى أنّه غاية لكلّ ما يقرأ. فالكاتب يفكّر قبل أن يكتب وفي أثناء كتابته، والقارئ يفكّر في ما يقرأ في أثناء قراءته وبعد أن يقرأ يحلّل ويتوقّع... إنّ العالم اليوم في أمسّ الحاجة إلى القراءة، بل إنّ هذه الحاجة بلغت مبلغًا يسمّيه المدير العام لليونسكو "مجاعة

الكتاب" بالنّسبة إلى قطاعات كبيرة من سكّان العالم. (شرف، ١٩٩١، ص ٢٨٢) وتفعيل القراءة بالعربيّة يحتّم دراسة مشكلة الكتاب العربيّ المرتبطة في صميمها بسير الأمّة العربيّة كلّها وصحّة تفكيرها وسلامة اتّجاهها، وذلك من خلال تناول عناصره في الإنتاج والتّوزيع كما في الشّكل والمضمون... ليكون كتابًا ذا قيمة ثقافيّة. وهنا يكمن الالتزام بمعايير ذات جودة عالية لمحتوى الكتب المدرسيّة وكتب المطالعة بمختلف أنواعها ومستوياتها. ويأتي استخدام علامات الضّبط في الكتب أمرًا لازمًا يسهّل عمليّة القراءة ويحفّز عليها. فالكتاب النّاجح المكتمل والمتكامل قوّة لا تهزم ولا تقهر... تقول "جوس مارتي" (Joss Marty): الكتب تضمّد الجراح الّتي تحفرها السّيوف. أمّا مديرة مكتبة "داغ همرشولد" السّابقة "ليف فلاديميريف" فتقول: "إنّ أيّ مصدر للقوّة ليس بوسعه أن يولّد قدرًا من النّور أكبر ممّا يصدره كتاب صغير..."

٤-٩ ربط مهارات اللّغة العربيّة بالمهارات المعرفيّة بحيث تكون دراسة اللّغة العربيّة باعثًا على اكتساب الخبرات العلميّة والمعرفيّة. و"توجيه البحث العلميّ في كافّة التّخصّصات لخدمة العربيّة وربطها بتلك العلوم والمعارف لردم الفجوة بينها. اعتماد العربيّة لغة علم وتنمية التّفكير العلميّ حيث يقع على عاتق المؤسّسة التّربويّة أن تدرّب كوادرها على استخدام المنهج العلميّ لكشف أسرار الكون والتّطوّر التّكنولوجيّ وحلّ قضايا المجتمع بطريقة موضوعيّة من طريق حركات النّقل والتّرجمة والأبحاث والدّراسات العلميّة النّاطقة باللّغة العربيّة". (الجبر، ٢٠١٠، ص ١٠٤) **فلا تقدّم علميّ في بلد إلّا إذا كانت البحوث تتمّ باللّغة القوميّة.** واللّغة العربيّة قد أثبتت جدارتها وبكفاءة كبرى في مرحلتين: في أيّام الحكم العربّي والحضارة العربيّة، وفي إبّان النّهضة، وفي لبنان بالذّات، عندما قامت الكلّيّة السّوريّة الإنجيليّة (الجامعة الأميركيّة اليوم).

٤-١٠ إعادة إحياء العلوم الإنسانيّة واحترامها وعلى رأسها الأدب العربيّ الّذي يستحقّ كلّ الاهتمام، والتّركيز على كون اللّغة العربيّة، حاملة هذا الأدب، أفضل ما يمكن أن يكتب به الأديب، لإنّها اللّغة الأمّ، ولغة الإبداع، ولغة الجمال والموسيقى...

٤-١١ وضع سياسات تربويّة تجعل اللّغات الأجنبيّة إثراء للّغة العربيّة لا بديلًا عنها، ولاحقة بها لا سابقة لها. فتعلّم اللّغة الأجنبيّة بإتقان واجب في البلدان العربيّة كلّها، لأنّه يعزّز الانفتاح الثّقافيّ المطلوب، لكنّ "التّعليم باللّغة الأجنبيّة خطأ يعادل الخيانة". (موسى، ص ١٥)

٤-١٢ إخضاع جميع طلّاب الجامعات لاختبار الكفاءة في اللّغة العربيّة. ويشترط الحصول على معدّل مرتفع في اختبار الكفاءة للّغة العربيّة للقبول في جميع التّخصّصات في مؤسّسات التّعليم العالي... والعمل على متابعة مستويات المتعلّمين، خصوصًا إذا كان هناك ضعف

ما، من خلال وضع مخطّطات تسهم في حلّ أيّ مشكلة ضمن هذا الإطار... كما العمل على تعزيز تعليم اللّغة العربيّة في هذه الجامعات...

٤-١٣ تفعيل وسائط التّخطيط اللّغويّ وأهمّها، في العصر الحديث، هو **المجامع اللّغويّة والقواميس والمجلّات اللّغويّة المتخصّصة.** كذلك استحداث مراكز بحث لغويّة تهتمّ باستخدامات العربيّة في كافّة الميادين والتّخصّصات، ووضع المعاجم والقواميس العمليّة المبسّطة، العلميّة والصّناعيّة والتّقنيّة المتخصّصة لدعم التّعريب في جميع التّخصّصات...

٥- العمل على تسهيل العربيّة والتّرويج لها.

إنّ من جهل شيئًا عاداه، فمعظم الّذين يعادون العربيّة يعادونها لأنّهم يجهلونها. انطلاقًا من هذا الواقع، **علينا أن نعمل على تأمين كلّ ما يمكن أن يحقّق عمليّة اكتساب ميسّرة لهذه اللّغة، كما عمليّة ترويج محفّزة لها. وذلك من خلال أمور عديدة نذكر أبرزها:**

٥-١ تسليط الضّوء على ما للّغة العربية من صفات تساعد على بقائها وانتشارها، كجمال التّعبير والاشتقاق والمرونة والغنى، وقد أكّد "الإمام الشّافعيّ" أنّ "لسان العرب" أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا. كذلك دافع "ابن خلدون" عن الأفضليّة الوظيفيّة للّغة العربيّة إذ كتب: إنّ غير اللّغة العربيّة من اللّغات ،كلّ معنى أو حال لا بدّ له من ألفاظ تخصّه بالدّلالة. لذلك نجد كلام العجم، في مخاطباتهم، أطول ممّا تقدّره بكلام العرب. وهذا هو معنى الحديث النّبويّ الشّريف: "وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَفَوَاتِحَهُ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا" (عن أبي هريرة)

٥-٢ اعتماد الحكومات العربيّة على سياسة خاصّة داعمة للّغة العربيّة، وإقرار قرارات تدفع الجميع إلى التّمسّك بها والتّشجيع على أن تغدو لسان الحياة اليوميّة والعمليّة، وذلك من خلال تمكينها في ميدان التّعبير الحضاريّ الشّامل للحياة العامّة في البيت والفندق والملعب والمصنع والمتجر والسّوق... في الأغنيات والمؤتمرات والبرامج والمسلسلات والأفلام والمسرحيّات... ما يقتضي تعريب الإدارات بمختلف أنواعها كما سوق العمل. فتضع جميع الشّركات والمؤسّسات الرّسميّة والأهليّة والخاصّة ضمن الشّروط الوظيفيّة لديها إجادة اللّغة العربيّة أو الحصول على شهادة الكفاءة اللّغويّة من مؤسّسة علميّة معتمدة، ويتمّ، على المنتجات، تدوين بياناتها ودليل استخدامها باللّغة العربيّة الفصيحة بشكل واضح ومقروء. كما تعريب الأنظمة واللّوائح والسّجلّات والمكاتبات والمعاملات والتّعامل والإجراءات في جميع الدّوائر والوزارات والمؤسّسات والأنظمة واللّوائح والتّعاميم في سوق العمل.كذلك تلتزم كلّ المؤسّسات والشّركات وكافّة الجهات الأجنبيّة والدّوليّة العاملة داخل الدّولة الّتي تستعمل في مكاتباتها لغة غير العربيّة أن ترفق مع كلّ معاملة ترجمة لها إلى اللّغة العربيّة. ويقتضي هذا الأمر تدريب الموظّفين بشكل دوريّ وتوعيتهم على أهميّة

اللّغة العربيّة، وتأهيلهم لاستخدامها بطريقة سليمة في جميع أعمالهم وتعاملاتهم، كما اعتماد التّدقيق اللّغويّ للمكاتبات والأعمال الإداريّة من خلال مدقّقين أكفّاء.

واستخدام اللّغة العربيّة الفصيحة في الاجتماعات واللّقاءات والحوارات، وتحفيز تعليم اللّغة العربيّة من خلال مَنح مكافآت خاصّة لكلّ موظّف يحصل على إجازة معتمدة في اللّغة العربيّة، ويجتاز اختبار الكفاءة في اللّغة العربيّة من السّلطة المختصّة. وتدريب العمالة الوافدة وتعليمها العربيّة على حساب الشّركات والجهات المتقدّمة. ومن المهمّ أيضًا اعتماد اللّغة العربيّة في كافّة النّشاطات والمناسبات وكتابة جميع اللّوحات واللّافتات بها، وتعريب جميع أسماء المحلّات والمتاجر والمؤسّسات والشّركات وعناوينها. وتعريب جميع الخدمات والمصالح والمهن ومنع دخول المنتجات إلى الأسواق العربيّة إذا كانت غير معرّبة أو مدعومة بالفصيحة.

٥-٣ إنشاء مجامع اللّغة العربيّة وفق أحدث النّظم، وتطوير نظام يصون هذه المجامع ويطوّرها ويعزّز إنتاجها وقراراتها، ويحرّرها من القيود الإداريّة، ويمنحها كافّة الامتيازات الّتي تعينها على أداء مهامّها وتفعيل دورها على الوجه المطلوب، حتّى يتسنّى لها **ربط اللّغة العربيّة بالعلوم والمعارف والصّناعات والتّقنيّات والتّجارة والاقتصاد والسّياحة والإعلام وكافّة المجالات الثّقافيّة واللّغويّة والأدبيّة**. ومن الأفضل أن يكون لكلّ دولة مجمع خاصّ بها، كما مجمع مشترك لكلّ الدّول العربيّة. ومن الضّروريّ العمل على أن يكون أعضاؤها أعضاء كفوئين يتقنون اللّغة العربيّة ويبرعون في حمايتها من زحف اللّغات الأجنبيّة أو اللّهجات المحكيّة، خصوصًا أنّ مجمع اللّغة العربيّة يجب أن يكون صاحب السّلطة الأكثر أهميّة في هذا المجال. ومن أهمّ ما يمكن أن تقوم به المجامع اللّغويّة، بغية تيسير عمليّة تعلّم اللّغة العربيّة، هو عمل إحصائيّ يرمي إلى تصنيف المفردات والتّراكيب العربيّة الفصيحة بحسب تواتر ورودها في الاستعمال وتطويرها، وتعريب المفردات التّقنية المقتبسة عن الأجنبيّة، وتشذيب العربيّة من ألفاظ العربيّة المعتمدة قديمًا ومنها ألفاظ غريبة عجيبة... **فاللّغة، شأنها في ذلك شأن الظّواهر الاجتماعيّة الأخرى، عرضة للتّطور في مختلف عناصرها: أصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها... والعربيّة الفصيحة كما كانت على توالي الحقب، في حضارة العرب، لغة علم ومعرفة للأمّة العربيّة في رحابها الفسيح، كذلك هي للمحدثين الّذين لهم حقّ الوضع كما كان هذا الحقّ لغيرهم.**

٥-٤ تجديد اللّغة العربيّة وتيسير تدريسها ومقاربتها، وذلك ضمن خطّة شاملة تستوعب تحدّيات العصر وسبل النّهوض بالعربيّة في عصر كادت فيه رياح العولمة تعصف بثقافة الأمم والشّعوب جميعًا وتبتلعها ضمن تيّارها الجارف الّذي يتّخذ من الإنكليزيّة لسانه الأوّل، بعد أن خفّ شأن الفرنسيّة إلى حدّ ما. إذ إنّ معظم المتعلّمين صاروا يلجأون إلى التّكلم باللّغة

الإنكليزيّة، ويوهمون أنفسهم بسهولة قواعدها حتّى لا يتكلّموا بلغتهم الأمّ. وفي هذا الإطار، من الضّروريّ العمل على وضع معاجم سهلة المقاربة كمعجم "الرّائد" للأستاذ "جبران مسعود"... **إلّا أنّ أبرز ما يمكن أن نتوقّف عنده في هذه الخطّة هو استخدام التّكنولوجيا** الّتي لم يعد موضوعها اليوم "مرتبطًا بمدى تقبّلها أو رفضها بقدر ما أصبح مرتبطًا بكيفيّة التّعامل مع التّحدّيات الّتي تفرضها حيث تغيّرت معالم الحياة البشريّة بفعل الثّورات والإنجازات التّكنولوجيّة المتتالية، وأصبح تطوّر الأمم يقاس بمدى توظيفها للتّكنولوجيا في مختلف مجالات الحياة اليوميّة". (بن عيّاش، ٢٠١٨، ص ٣٢٠)

٦. إنهاء سيكولوجيّات التّوتّر بين الأنا والآخر.

قال الأديب اللّبنانيّ "ميخائيل نعيمه": "التّلاقح بين الأجناس سنّة من السّنن الأوّليّة في الحياة... وما عالم الأجساد إلّا المثال المحسوس للعالم الّذي وراء الحسّ... وإنّي لأرجو أن يكون لقاحًا طاهرًا من الضّغينة والجشع وحبّ الأخذ بالثّأر...". بعد نهاية الاستعمار واستبدال هيمنات عسكريّة واستيطانيّة بأخرى إمبرياليّة وسوقيّة وتكنولوجيّة، هل انتهت سيكولوجيّات التّوتّر بين الأنا أو الذّات العربيّة والآخر ونعني به تحديدًا الذّات الغربيّة؟ إنّه سؤال لا بدّ من طرحه في معرض قراءتنا لواقع اللّغة العربيّة في مواجهتها لتحدّيات العصر وفي طرح الحلول والرّؤى المناسبة لانتشالها من كبوتها الحضاريّة... وقد يكون السّؤال الأهمّ في مسار تحقيق هويّة مميّزة.

في الواقع، إنّ مراقبة موضوعيّة لما يجري في معظم دولنا العربيّة يبيّن لنا، بكلّ وضوح، **أنّ سيكولوجيّة التّوتّر بين الأنا والآخر لم تنته بعد، بل اتّخذت أشكالًا أخرى خادعة، وهيئات، وإن تزيّت أحيانًا بما هو سلميّ وهادئ ومنمّق، إلّا أنّها ما زالت تستعر من الدّاخل كأنّها جمر تحت الرّماد.** هذا الواقع يدعونا إلى التّفكير في مخارج وحلول كي ننهي هذا التّوتر القائم بين الأنا والآخر، ونخرج من مأزق الصّراع والصّدام بين الحضارتين أو الذّاتين، ونعيد الحال إلى ما يُفترض أن تكون عليه. وأيّ محاولة لإيجاد حلول كفيلة بهذا الأمر لن تكون سهلة على الإطلاق، إلّا أنّ عدم الاستسلام هو أمر ضروريّ. **وفي هذه الحال، يمكننا اللّجوء إلى بعض الإجراءات الأساسيّة الّتي نذكر منها:**

٦-١ السّعي لخلق روح جديدة في الذّات العربيّة يكون ملؤها الثّقة بنفسها والقدرة على الانبعاث للتّمكّن من مواجهة الآخر ومقارعته ومنافسته... ولكي ينبعث العرب في حال شبيهة بالّتي كانوا عليها في العصور العباسيّة "عليهم أن يتعهّدوا طَلْعًا جديدًا إذ لا سبيل إلى دفع الحياة في طَلْع قديم يابس... قال المفكّر والفيلسوف الألمانيّ "ڤون كايسرلينغ" (Hermann von Keyserling) إنّ انبعاث النّهضة لا يحدث دومًا إلّا في جسم جديد". (الخازن، ١٩٨٤، ص ٢٠-٢١)

٦-٢ اللّجوء إلى الحوار الحضاريّ البعيد عن الأحاديّة الّتي يراد فرضها، والإيمان بأهميّته، وبقيمة التّنوّع إذ هو سرّ الحوار وجوهره وديمومته. لذا يجب قراءة الآخرين والتّعامل معهم من خلال قناعات ومصالح يفرضها واقع الحال بين الجهتين بعيدًا عن فرض الإرهاب والسّيادة. وهذا المشروع ينطلق من تعزيز الحوار في الحضارة نفسها أوّلًا، ثمّ، ثانيًا، مع الحضارات الأخرى بطريقة سليمة واعية وعقلانيّة.

٦-٣ العمل على الاستقلاليّة الفكريّة لا القطيعة الثّقافيّة، كما على الانفتاح ضمن شروط عدم إلغاء الذّات أو الذّوبان في الآخر. وهذا يعزّز روح الأصالة والفرادة الّتي ينبغي أن يُحافظ عليها لإغناء الحضارة الإنسانيّة من جهة، وعدم إلغاء الذّات الأصيلة من جهة ثانية. وهذا لا يتمّ إلّا باحترام الذّات العربيّة لجوهرها ولقدراتها... وافتخارها بما كان لها وبما يمكن أن يكون في حال توفّرت الإرادة لهذا. ومثالنا في ذلك "الجاحظ" الّذي لطالما دأب على تمزيق الضّباب الّذي حاول المستعمرون تغليف الشّخصيّة العربيّة به... فـ "في صيانة الأوطان وحفظها، كما في صيانة الأجساد وحفظها، الثّوب المستعار لا يدفئ، وثوب الوطن هو لغته". (موسى، ص ١٠، ١٣) ونحن ثوب وطننا هو اللّغة العربيّة. فعلينا أن نسعى كي نحافظ على هذا اللّسان لا أن نسعى إلى إضعافه أو تغييره أو استبداله بآخر...

٦-٤ إثبات أهميّة الحضارة العربيّة وفضلها على الحضارة الغربيّة، لأنّ هذا الأمر يسهم، إلى حدّ بعيد، في القضاء على روح الاحتقار والتّعالي الّتي كان يقابِل بها معظم الغربيّين التّراث العربيّ والمشرقيّ على العموم، ويعيد الأمور إلى نصابها على ضوء العلم والحكم الموضوعيّ، ويساعد على الانفتاح والتّفاعل والاحترام المفترض بين مختلف الحضارات. قال المؤرّخ والمستشرق البلجيكيّ "جورج سارتون" (George Sarton): "كان العرب أعظم معلّمي العالم. فلو لم ينقلوا كنوز الحكمة اليونانيّة لتوقّف سير المدنيّة بضعة قرون. فوجود العالم الموسوعيّ "ابن هيثم" والعالم والفيلسوف "جابر بن حيّان" وأمثالهما كان لازمًا وممهّدًا لظهور الفيلسوف والعالم والفلكيّ الإيطاليّ "غاليليو" (Galileo Galilei) (١٥٦٤-١٦٤٢) والعالم الإنكيزيّ "نيوتن" (Isaac Newton) (١٦٤٢-١٧٢٧). **وقد جاهر المستشرقون عمومًا بفضل الحضارة العربيّة على التّراث الإنسانيّ**". (الخازن، ١٩٨٤، ص ١١٣) أمّا المؤرّخ الفرنسيّ "موريس لومبار" (Maurice Lombard) فحصر في كتابه "الإسلام في عظمته الأولى" ذروة النّهضة في المشرق الإسلاميّ بين أواسط القرن الثّامن والقرن الحادي عشر، إذ إنّ المراكز الفاعلة في عالمي الاقتصاد والثّقافة كانت آنذاك في هذا المشرق. أمّا الغرب فكان في حالة تقهقر بعد تدهور حضارة رومية وغزوة البرابرة. وقد بدا العرب في العلوم جُمّاعا مرّة ومبدعين مرّة أخرى، وهذه هي الحال الطّبيعيّة لأيّ أمّة. فتميزت حضارتهم، وتحديدًا العباسيّة، بالوحدة مع التّنوّع لأنّها

جمعت إلى الحضارة العربيّة الأدبيّة والفكريّة أبّهة الفرس ونظمهم وآدابهم، ومهارة أهل السّند بالصّيرفة والعقاقير، وصناعة أهل الصّين، وفلسفة اليونان وآدابهم، وحساب الهند وعلومهم الفلكيّة والطّبّيّة وغيرها... قال المؤرّخ اللّبنانيّ الدّكتور "فيليب حتّي": "طلع القرن التّاسع الميلاديّ، فإذا زعامة السّياسة العالميّة يتقاسمها اثنان: "شارلمان" في الغرب و"هارون الرّشيد" في الشّرق. وليس من شكّ في أنّ "الرّشيد" كان أقوى الاثنين وأرفعهما ثقافة". وبناء على الاقتراح الّذي أقرّه المؤتمر العامّ للأونسكو، في دورته الثّانية عشرة، تمّ، عام ١٩٧٠، جمعُ كتاب بعنوان "أثر العرب والإسلام في النّهضة الأوروبية"، وقد جاء في مقدّمته كلام معبّر للكاتب الأميركيّ "ت. ك. يونغ" (T. C. Young) كما جاء في ختام بحث له في "أثر الثّقافة الإسلاميّة في الغرب المسيحيّ" حيث قال: "وبعد، فهذا عرض تاريخيّ قصد به التّذكير بالدَّين الثّقافيّ العظيم الّذي ندين به للإسلام، منذ أن كنّا نحن المسيحيّين، داخل هذه الألف سنة، نسافر إلى العواصم الإسلاميّة وإلى المعلّمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الإنسانيّة، وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكيّ الّذي قام الإسلام على رعايته خير قيام"... ومن جهة أخرى، "أقرّ المؤرّخ الفرنسيّ "ماكسيم رودنسون" (Maxime Rodinson) بأنّ أوروبّا أفادت من حضارة العصور العربيّة الوسطى الّتي كانت لها بمثابة دليل، كما أقرّ للعرب بإغناء التّراث الإنسانيّ بمنجزات قيّمة. وقد أسهمت منظّمة الأمم المتّحدة للتّربية والعلوم والثّقافة – أونسكو (Unesco) بإعادة تقويم أثر العرب والإسلام في النّهضة الأوروبيّة وبإبرازه". (الخازن، ١٩٨٤، ص ٥٣) وتجلّى هذا التّأثير المشرقيّ بدخوله الغرب من طريق إسبانيا وصقلية بنوع خاصّ، ومن آسيا الصّغرى إلى أوروبّا الشّرقيّة، وذلك من أبواب التّجارة الّتي كان معظمها بيد العرب. وكان لهذا التّأثير فضل كبير على النّهضة الإيطاليّة في القرنين الرّابع عشر والخامس عشر، ووصلت الأفكار اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة والصّينيّة إلى العرب بفضل ترجمات عربيّة. ومن شواهد التّأثير العربيّ في ثقافة الغربيّين كثرة الألفاظ العربيّة الّتي دخلت لغاتهم مثل القطن والسّكّر والقهوة والمخزن... ويقول الأديب المصريّ "عبّاس محمود العقّاد" إنّ ما دخل الإسبانيّة والبرتغاليّة منها لا يكاد يحصى كالقباء والقطران والسّاقية والرّطل... لقد علّم العرب العالم استخدام الأرقام مع أنّها لم تكن من اختراعهم، وأصبحوا بذلك مؤسّسي علم الحساب الدّارج، وحوّلوا الجبر إلى علم دقيق بعد أن طوّروه أرفع تطوير، وصاغوا أسس الهندسة التّحليليّة. وكان العرب، بلا شكّ، مؤسّسي علم المثلّثات المستوية والكرويّة، الّذي لم يكن معروفًا للإغريق. وفي مجال علم الفلك قام العرب أيضًا بالعديد من الأرصاد الفلكيّة القيّمة وكلّ ذلك بالعربيّة. لقد ترجم العرب منذ أسّس الخليفة العبّاسيّ

"المأمون" "بيت الحكمة" في مطلع القرن الثّالث الهجريّ عددًا من المؤلّفات لـ "أبقراط" و"جالينوس" في الطّبّ، وترجموا من مؤلّفات "أفلاطون" وأعمال "أرسطو" في المنطق، وأبحاث "أرخميدس" و"أقليدس" الرّياضيّة وغيرها وغيرها... (بوبو، ١٩٩٠، ص ٥٤) أمّا "**الخوارزمي**" الّذي عرف عند الأوروبيين بـ Alghoarismus فكان من مشاهير العلماء في العالم، وأوّل عَلَم بارز سواء في الرّياضيّات أم في الفلك (واضع أسس علم الجبر الحديث وأوّل من فصل بين علمي الحساب والجبر)... ومن اسمه، بتعديل صوتيّ يسير، اشتقّ الغرب المصطلح "اللّوجاريتم"، وعلى أساس كتابه "الجبر والمقابلة" قام علم الجبر ومنه أخذت التّسمية الباقية مصطلحًا عالميًّا إلى اليوم. وكان أحد كتبه أوّل مؤلّف في الحساب باستثناء المؤلّفات الهنديّة حيث استخدم النّظام الحسابيّ الحاليّ وبالأرقام المعروفة اليوم بـ "الأرقام العربيّة". وقد وضع "الخوارزميّ" وأخلافه طرائق حسابيّة لمختلف العمليّات الرّياضيّة المعقّدة مثل استخراج الجذر التّربيعيّ (square root). أضف إليه "**ابن سينا**" الذّي يعتبر واحد من عباقرة الإنسانيّة. من أشهر أعماله "كتاب القانون" في الطّبّ الّذي ظلّ لسبعة قرون متوالية المرجع الرّئيس في علم الطّبّ، وبقي الكتاب العمدة في التّعليم حتّى أواسط القرن السّابع عشر في جامعات "أوروبا". قام بدراسات فلكيّة منها رصد كوكب "الزّهرة" كبقعة على سطح الشّمس واستنتاج أنّه أقرب إلى الأرض ممّا هو للشّمس... ابتكر جهازًا لرصد إحداثيّات النّجوم، وصنّف نحو مئة كتاب في الطّبّ والفلسفة والأدب... و"**جابر بن حيّان**" الّذي لقّب بأبي الكيمياء، له أكثر من مئة مؤلّف، أهمّها كتاب "السّبعون"، ويضمّ أهمّ ما قد توصّل إليه العرب حول الكيمياء في عصره. وقد ترجم بعض مؤلّفاته إلى اللّاتينيّة، فانتقل عدد من الكلمات العربيّة الّتي ترمز إلى الموادّ الكيميائيّة والأواني المخبريّة إلى اللّغات الأوروبيّة... و"**أبو الرّيحان البيروني**" وهو أوّل من قال إنّ الأرض تدور حول محور هازّ. له إسهامات في حساب المثلّثات والدّائرة وخطوط الطّول والعرض ودوران الأرض والفرق بين سرعة الضّوء وسرعة الصّوت... و"**أبو بكر الرّازي**" وهو ملقّب بـ"جالينوس" العرب. من أهمّ الأطبّاء في تاريخ الإنسانيّة. و"**ابن سهل**" الّذي اكتشف أوّل قانون انكسار، واستخدمه لاستخلاص أشكال العدسات الّتي تركّز الضّوء من غير انحراف والمعروفة بعدسات الانكسار... و"**الحسن بن الهيثم**" الّذي أسّس علم الضّوء. ينسب إليه اختراع أوّل كاميرا بثقب صغير. ساهم في وضع أسس كثير من العلوم منها: علم الحركة (الميكانيكا) وعلم الضّوء وعلم العدسات. بلغت مؤلّفاته الخمسين كتابًا ورسالة في الميدان العلميّ المعقّد... و"**أبو بكر الكرخيّ**" وهو من أشهر علماء الرّياضيّات. استخرج قانون العمليّات الحسابيّة من جمع وطرح للأعداد الصّمّاء (الأعداد الّتي ليس لها جذر تربيعيّ Square root)... وغيرهم ممّن حفلت كتبهم بالمصطلحات العلميّة الّتي كانت كلّها باللّغة

العربيّة.

٦-٥ تأطير قوّة اللّغة العربيّة وقدرتها على حمل فكر العرب وعلومهم في حال وجدت. هذه اللّغة الّتي استطاعوا نقلها إلى مختلف الأصقاع الّتي فتحوها وسيطروا عليها. **فكانت "من اللّغات العالميّة الكبرى الّتي تحوّلت في العصر العبّاسيّ إلى لغة متعدّدة الأعراق والأوطان، وتمكّنت من أن تبتلع عددًا من لغات الأمم الأخرى في شكل تعرّب كامل لتلك الأمم، أو أثّرت فيها وأثرتها من خلال اقتراض تلك اللّغات من مفردات اللّغة العربيّة أو تبنّي صيغها النّحويّة والصّرفيّة.** ومن هذه اللّغات الّتي أثرتها اللّغة العربيّة وأثّرت فيها تأثيرا عميقا: اللّغة الفارسيّة والتّركية والعبريّة". (عبد المسيح، ص ١٠٠) وبناء على الدّراسات التّاريخيّة، يتبيّن لنا أنّ هذه اللّغة كانت، في يوم من الأيّام، "لغة السّياسة والثّقافة ونُقلت، بعدئذ، إلى علوم الإغريق والفرس والسّريان والهنود، إذ استوعبت كلّ ما كان بين يديها، وأضافت إليها عن طريق حركة التّرجمة الّتي جعلت اللّغة العربيّة لغة أكثر حيويّة ومجاراة للعصور كلّها، وقد غدت علميّة وعالميّة حتّى الأندلس". (بوبو، ١٩٩٠، ص ٥٩) **لقد صلحت العربيّة لعلوم عصرها ولم تكن عاجزة أو قاصرة، بل كانت صالحة لها، حاملة لها، قادرة على مدّها بالمناسب من التّسميات والمصطلحات... وهي لم تذب في مجرى لغات تلك الحضارات، ولم تكن امتدادًا عضويًّا لها، ولم يفكّر أحد من حملتها في اتّخاذ الرّوميّة أو الفارسيّة أو الهنديّة لغة للعلوم الّتي عرفها ذلك الزّمان.** قال الكاتب والمفكّر المغربيّ الدكتور "عبدالله العروي": "إنّ أوج التّاريخ العربيّ والحضارة العربيّة هو القرن الرّابع الهجريّ (العاشر بعد الميلاد) حيث شاركت كلّ الأجناس وكلّ العواصم في ازدهار ثقافة غزيرة متنوّعة أدبيّة علميّة فلسفيّة كلّها مكتوبة باللّغة العربيّة". بعد تلك الحقبة لم تشهد أيّ عاصمة من عواصم الوطن العربيّ نشاطًا فكريًّا مماثلًا ولم يستعد العرب نفوذهم وتأثيرهم ومركزهم القياديّ.

٦-٦ تفعيل عمليّتي التّرجمة والتّعريب اللّتين تسهمان في تطوير الحضارة الإنسانيّة وإغنائها واستمرارها معطية لكلّ ذي حقّ حقّه. ويكون الهدف الأساس من هاتين العمليّتين هو حفظ العربيّة، وإعلاء شأنها ونشرها... وقد أقرّ المستشرقون والعلماء الأجانب للعرب بفضل كبير في نقل العلوم وتطويرها. كلّ هذا يعني أنّ علينا أن نربط بين ماضينا وحاضرنا، فنفرّق اليوم كما فرّقوا بالأمس بين عمليّتي التّرجمة والتّعريب، وأن نكثر من نقل العلوم بكلّ وسيلة نملكها كما فعل علماؤنا القدامى، عندما "قامت حركة النّقل لديهم على قدم وساق في كلّ الميادين، ولا سيّما في عصر "المأمون" الّذي بلغت فيه تلك الحركة أوجها. وفي هذا، علينا ابتغاء الدّقة في نقل مصطلحات الطّب والطّبيعة والفلك والكيمياء والفلسفة والرّياضيّات وأهمّ ألفاظ الحضارة والعلوم والفنون". (الصّالح، ١٩٩٠، ص ٣٠٠) وفي سياق تفعيل

عمليّتي التّعريب والتّرجمة من الضّروريّ ترجمة الكتب والمراجع العلميّة الحديثة في جميع التّخصّصات الّتي تدرّس في البلدان المتقدّمة، وإنشاء هيئة عربيّة تعنى بجميع قضايا التّعريب والتّرجمة، ووضع خطط استراتيجيّة لهما في الوطن العربيّ.

ختامًا، وفي نهاية هذه القراءة، لا بدّ من الوقوف عند أبرز النّتائج الّتي تمّ التّوصّل إليها:

- **إنّ الواقع العربيّ بما فيه من نقاط ضعف هو المسؤول عن الحال الّذي وصلت إليه اللّغة العربيّة،** وذلك لأنّ قسمًا كبيرًا منه ما زال تحت سيطرة نظام بطركيّ أبويّ تقليديّ عجزت فيه الذّات عن بناء كينونتها بما يتلاءم مع تحدّيات الزّمن المعاصر، ما جعلها تفقد هويّتها وتتخبّط في أزمة ثقافيّة وفي استلاب لغويّ سبّبه ازدواج لغويّ، لا بل هيمنة اللّغات الأجنبيّة على اللّغة العربيّة، وتحديدًا اللّغة الإنكليزيّة جرّاء اختراق ثقافيّ أصاب المجتمع العربيّ. ويبدو أنّ معظم المؤسّسات التّربويّة والإعلاميّة مقصّر في هذا الإطار، لا بل مساهم فيه إذ عزّز اللّهجات المحكيّة واللّغات الأجنبيّة على حساب العربيّة الفصيحة.
- **إنّ الثّقافة العربيّة وبالتّالي، اللّغة العربيّة لا يمكنهما التّخلّص من سباتهما الأكاديميّ وجمودهما الفكريّ والعمليّ وتقاعصهما العلميّ، إلّا بتحرّك الإنسان العربيّ،** وقيامه بخطوات جريئة تبدّل الواقع وتحوّله نحو الأفضل. فهو المسؤول عن تقهقر اللّغة العربيّة، وهو المسؤول عن إنقاذها، لأنّ اللّغة من الإنسان وللإنسان. من أبرز هذه الخطوات إحداث تغييرات جذريّة في البيئة الاجتماعيّة ونظام الحكم، وخلق خطاب نقديّ عربيّ مستقلّ قادر على تفعيل قوى التّغيير والتّطوّر، والمحافظة على الشّخصيّة والهويّة الثّقافيّة، وبناء نظام تربويّ متطوّر خادم ومعزّز للّغة العربيّة، والعمل على تسهيل العربيّة والتّرويج لها، وإنهاء سيكولوجيّات التّوتّر بين الأنا والآخر أو بين الغرب والعرب ...
- **إنّ اللّغة العربيّة هي مركز ثراء وقوّة، فمن الضّروريّ الاستثمار فيها** على مستوى الفرد والمجتمع والمؤسّسات الحكوميّة والأهليّة والدّوليّة. يشمل الاستثمار في العربيّة استحداث المراكز والمعاهد والأقسام وتأليف الكتب والمراجع وإنتاج التّقنيّات والصّناعات والتّرجمة والتّعريب واستحداث الوظائف والتّدريب والتّأهيل وتطوّر الأسواق والمتاجر والتّبادل الثّقافيّ والمعرفيّ... قد يكون الكثير من الدّول العربيّة يفتقر إلى موارد كثيرة تجعل منه دولة نافذة قويّة. فلمَ لا تتّجه الأنظار إلى اللّغة العربيّة ويتركّز الاهتمام عليها، هذه اللّغة الّتي لا تقلّ شأنًا عن غيرها من الثّروات والموارد؟... قال المتنبّي يومًا:

لاخيل عندك تهديها، ولا مالُ فليُسعدِ النّطقُ إن لم تسعِدِ الحالُ.

- **إنّ اللّغة هي عماد النّهضة ولن يكون لنا نهضة من خمولنا إلّا بتعزيز اللّغة العربيّة وبتثبيت دعائمها،** وإبراز دورها في حياة إنسانها. فاللّغة هي أحد وجهي الدّنيا، على حدّ تعبير المستشرق والعالم اللّغويّ الألمانيّ "ماكس مولر" (Max Müller) فإذا لم تكن اللّغة

تامّة صحيحة فلن يكون لنا فكر تامّ صحيح، بحسب رأي العالم والأديب اللّبنانيّ الشّيخ عبدالله العلايلي. فهي تتميّز في أنّها عامل تكوين بالإضافة إلى كونها عامل تثقيف، ذلك أنّ شخصيّة الفرد تصبح أكثر تكاملًا ووضوحًا بمقدار إتقانه لغته. من هذا المنطلق تصبح اللّغة ضرورة أساسيّة كضرورة النّموّ الجسديّ والعقليّ...

- **إنّ المثقّف العربيّ الطالع اليوم وسط خرائب عالم ممزّق، عليه ألّا يبقى غير آبه لمواجهة التّحديات الكامنة لإعادة بناء هذا العالم.** كما على المجتمع العربيّ المعاصر حيث يغيب الفكر النّقديّ عن الطّروحات الموروثة، وحيث الغايات النّهائيّة لا معنى شخصيًّا لها، أن ينتفض من سباته ويستعيد دورًا كان له في ما مضى من زمن، حيث كانت العلوم كلّها بالعربيّة، وكانت هذه اللّغة قادرة على أن تفي بحاجة الحضارة العبّاسيّة وأن تكون وعاء ملائمًا لها.

كلّ هذا يجعلنا كمراقبين لواقع الحال العربيّ أن نقول **إنّ اللّغة العربيّة لم تمت بل هي الهمم العربيّة الّتي ماتت واللّغة العربيّة، للأسف، لحقت بها... يقول "ميشال زكريّا":** " إنّ اللّغة من الحياة الإنسانيّة ولها، والتّعاطي معها شكل من أشكال الأداء الحياتيّ، فإن عاش الإنسان عاشت وإن مات ماتت." ونحن شعوب يتلهّى معظمه بقتل بعضه بعضًا، بعيدًا عن أيّ رغبة في الإنجاز أو الاكتشاف أو الاختراع أو التّطوّر... وإذا كان هناك في مكان ما تطوّر حاصل فمعظمه بأيدي الآخرين، أو من خلال حضارة الآخرين ولغتهم... لقد تخلّينا جميعًا، وبإرادتنا، عن إنجازاتنا العلميَّة، وعن حضارتنا الفكريَّة وشخصيّتنا القوميّة الّتي استوعبتها اللّغة العربيّة وعبّرت عنها بسهولة في ذاك العصر الذّهبيّ. نعم، لقد رفضنا التّطوّر، ثُمّ لجأنا إلى لغة، لا بل لغات أخرى، وتطوّر ليس لنا، لكي نستر بهما ما لدينا من ضعف! نسينا ماضيا مزدهرًا كان لنا في الأمس، ووقفنا، اليوم، فارغي الأيدي أمام حاضرٍ ضعيف، نتوسّل فيه الآخر، ونأخذ منه لغاته وعلومه وفكره وحضارته وتقاليده...

علينا ألّا نبقى في هذا الواقع... علينا أن نعي خطورة واقعنا، فننتشل أنفسنا ممّا نحن فيه... علينا أن نعمل، أن نتطوّر، أن نأتي بما يتلاءم مع زمن العولمة والتّكنولوجيا، أن نكون مبدعين، مبتكرين، لا تابعين، متّكلين... ولغتنا، حتمًا، ستلحق بنا، وستحمل منجزاتنا، كما فعلت في أمس مضى، فتكون محاكية للعصر، ملبّية لزمنه... وتكون حقًّا لغة متطوّرة، ومرغوبًا فيها...

فمتى نصل إلى هذا الوعي؟... متى نستفيق من سبات شئناه لأنفسنا؟ متى نستعيد أمجادًا كانت لنا في الزّمن الماضي، وننطلق إلى ما هو أبعد وأعظم منها؟... بين الأمس واليوم؟؟؟؟ ليت يومنا يصبح أفضل من أمسنا!

المصادر والمراجع :

١. بن عيّاش، سمير. التّكنولوجيا وأثرها على الهويّة الثّقافيّة للشّباب العربيّ. مصر: المجلّة المصريّة لعلوم المعلومات، مجلّد ٥، عدد ١، نيسان ٢٠١٨.

٢. بوبو، مسعود. اللّغة العربيّة وإشكالات المعاصرة. مجلّة الفكر العربيّ، عدد نيسان – حزيران، ١٩٩٠.

٣. الجبر، محمّد. تحوّلات الثّقافة العربيّة. دمشق: دار التّكوين، ط١، ٢٠١٠.

٤. الخازن، وليم. الحضارة العبّاسيّة. بيروت: منشورات الجامعة اللّبنانيّة، ١٩٨٤.

٥. سلامة، محمّد. أدب العالم بين المركزيّة والتّهميش: قراءة في الأدب العربيّ ما بعد الاستعمار. ALIF (Journal of Comparative Poetics) No ٣٤، ٢٠١٤.

٦. شرابي، هشام. أزمة المثقّفين العرب. بيروت: دار نلسن، ط ١، ٢٠٠٢.

٧. شرابي، هشام. النّقد الحضاريّ لواقع المجتمع العربيّ المعاصر. بيروت: دار نلسن، ط ٣، ٢٠٠٠.

٨. شرف، عبد العزيز. اللّغة العربيّة والفكر المستقبليّ. بيروت: دار الجيل، ط ١، ١٩٩١.

٩. الشّنقيطيّ، مخمّد المختار. نحو عدالة لغويّة: من أجل رفع الحيف السّياسيّ عن اللّغة العربيّة في بلاد العرب. قطر: مجلة أنساق، كلية الآداب والعلوم، جامعة حمد بن خليفة، المجلّد الثّاني، العدد الثّاني، يونيو ٢٠١٨.

١٠. الصّالح، صبحي. الإسلام ومستقبل الحضارة. بيروت: دار الشّورى، ط ٢، ١٩٩٠.

١١. عبد المسيح، ماري تيريز. منفى الوطن ووطن المنفى: تقاطع المسارات وآفاق المستقبل. ALIF (Journal of Comparative Poetics) No ٣٤، ٢٠١٥.

١٢. الفيروز آبادي، مجد الدّين أبو طاهر محمّد بن يعقوب. القاموس المحيط. بيروت: مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط ٨، ٢٠٠٥

١٣. قمير، يوحنّا. في الثّقافة وثقافة لبنان. بيروت: مؤسّسة نوفل، ط ١، ١٩٩٤.

١٤. مرعي، نورا. اللّغة العربيّة وتحدّيات العصر. بيروت: مجلّة المنافذ الثّقافيّة، العدد السّادس، ٢٠١٤.

١٥. موسى، محمّد علي. اللّغة العربيّة والوحدة الوطنيّة في لبنان. بيروت: دار السّلام للنشر، ط ١، ٢٠٠٧.

الأمانة والجمال في الترجمة الأدبيّة والترجمة الفوريّة

بين الممكن والمستحيل

الدكتورة باميلا عموري معلوف

مقدّمة:

أن ينخرط المترجم في عمليّة الترجمة أمرٌ عادي ولا جديد فيه، إنّما أن يغوص في عمق أعماق النصوص الأدبيّة النثريّة والشعريّة لنقلها من لغة مصدر إلى لغة هدف، فأمرٌ عسير يستوجب مهارات استثنائيّة لما يتطلّبه هذا النوع من النصوص من كفاءة عالية لدى المترجم. وينطبق الأمر على الترجمة الفوريّة التي تنطوي على صعوبات كبيرة لا يُستهان بها، بالتالي، كيف يمكن للمترجم الفوريّ أن ينقل الخُطاب بأمانة وإخلاص، مع المحافظة على جمالية التعبير؟

إلى جانب إتقانه اللغتين، على المترجم أن يدرك تمامًا قولَ الكاتب أو الشاعر ومُرادَ قولِه، كما على المترجم الفوريّ أن يعي قولَ المتحدّث ومُراد قولِه، وأن يتمكّنَ كلٌّ منهما من نقل روح النصّ ووقعَه وموسيقاه وأسلوبَه وصوره وتعابيره وجماليّته وسحره بشكل أمين. إذًا، كيف سيتمكّن المترجم من ترجمة الأدب أو الخطاب بأمانة فيبتكر تحفةً جميلةً مطابقة للأصل من حيث المعنى، إنّما هي في الوقت عينه عملًا قائمًا بذاته يتّسم بالجمال والإبداع.

في هذا الإطار، نعالج مدى إمكانية ترجمة النصّ الأدبي والخطاب الشفهي بشكل أمين وجميل ومبدع، ومدى استحالتها.

بين الممكن والمستحيل، كيف يتجلّى إبداع المترجم وما هي حدود إبداعه؟

يقول طاغور: "سأل الممكن المستحيل أين تقيم؟ فأجاب: في أحلام العاجز"[٣١].

بين الممكن والمستحيل، وهما النقيضان اللذان ننطلق منهما، من يحدّد إمكانيّة الشيء أو استحالته؟ وهل يمكن لهذين النقيضين أن يلتقيا بطريقة أو بأخرى؟ وهنا نتساءل عن الأسباب التي قد تؤدّي إلى استحالة الترجمة والتي تتجسّد مثلًا بقدسية النصّ على المستوى الديني والإجتماعي، وبتعقيد اللغة والأسلوب والتعابير والأفكار بحدّ ذاتها كما ثقافة المؤلّف وبيئتِه.

ما يهمّ القارئ، يقول الكاتب الروماني ماركوس توليوس شيشرون (Marcus Tullius Cicero) ، لا يكمن في تقديم العدد نفسه (من الكلمات)، بل الوقعَ نفسه[٣٢].

---

[٣١] رابندراناث طاغور

[32] *"J'ai cru, en effet, que ce qui importait au lecteur, c›était de lui en offrir non pas le même nombre, mais pour ainsi dire le même poid"*.
Trad. BORNECQUE, Henri (1999), citée dans Inês Oseki-Dépré, Théories et pratiques de la traduction littéraire, Paris, Armand Colin, p.19.

وهذا ما تشير إليه أيضًا امبارو اورتادو البير (Amparo Hurtado Albir) فتقول إنّه: إن شئنا أن يفهم القارئ المعنى بشكل جيّد وأن يدركَه... فلا مفرّ من بعض التعديلات، وذلك حفاظًا بالطبع على التأثير أو الوقعِ عينِه[٣٣]. إذًا، كيف يكون المترجم أمينًا؟ وبخاصّة أنّه قد يضطرّ إلى التصرّف والتعديل أحيانًا ناهيك عن ترك بصمته الخاصّة. ومن هنا التنسيق ما بين الأسلوب وطريقة التعبير والمعنى، فينقل المترجم "قول" الكاتب و "مُراد قوله" أيضًا. في هذا الإطار، كيف يمكن ترجمة النصوص الأدبيّة بشكل أمين وجميل في آنٍ من جهة، وهل تحدّ الأمانة في الترجمة الأدبيّة من الجمال، وهل الجمال في الترجمة الأدبيّة يحدّ من الأمانة من جهة أخرى؟ بالتالي، كيف يمكن التوفيق بين الأمانة والجمال في ترجمة هذا النوع من النصوص بشكل مبدع؟

لا تقتصر الترجمة الأدبيّة على الأمانة فحسب إذ إنّ مفهوم الجمال يؤدّي دورًا رئيسًا في المجال الأدبي. أمّا ماهيّة الجمال في الترجمة بشكل عام وفي الترجمة الأدبيّة بشكل خاص، فتتجلّى في الأسلوب وجمال التعبير والصور والشعرية والوقع الموسيقي ووقع النصّ وإيقاعه وسحره وروحه، في النثر كما في الشعر. ولعلّ جمال النصّ الأدبي المترجَم هو ما يميّز ترجمة عن أخرى في هذا المجال، فضلًا عن الوقع الذي يتركه النصّ الأدبي في نفس القارئ.

إن كان الجمال عنصرًا أساسيًا في الترجمة الأدبية، قد يختلف الأمر في مجال الترجمة الفوريّة، وبصفتي مترجمة فورية، أحيّي الجهود التي يبذلها الزملاء المترجمون الفوريّون لنقل المحتوى بأمانة وبأكبر قدر ممكن من الجمالية في التعبير. وهنا أتوقّف لأشير إلى أنّ أبرز الصعوبات التي يواجهها المترجم الفوريّ تتجلّى أوّلًا في سرعة الخطاب، إذ قد يغيب عن ذهن المتحدّث أنّ هنالك من ينقل خُطابَه إلى لغة أخرى، ما قد يدفع بالمترجم الفوريّ إلى الاختصار، ولعلّ هذا ما يجدر به فعله، إذ يتمتّع المترجم الفوريّ بقدرة عالية على الإصغاء والتحليل ورصد جوهر الكلام ونقلِه إلى لغة أخرى في آنٍ واحد. وهذا ليس بالأمر السهل! إلى جانب السرعة في الكلام، نذكر الشاعرية مثلًا والاقتباسات وتعقيد اللغة والأسلوب. ونظرًا لأنّ المترجم الفوريّ لا يتمتّع برفاهية الوقت للترجمة، قد يضطرّ أحيانًا إلى نقل المضمون على حساب الجمال، غير أنّ ذلك لا يعني الوقوع في الأخطاء اللغوية إنّما نقل الخطاب بأمانة وبلغة صحيحة ومفهومة. فإن عرض المتحدّث شعرًا أو نثرًا، قد يستحيل

[33] *" Si l'on veut que le lecteur comprenne bien et qu'il reçoive le même sens... les modifications sont inévitables ".*
HURTADO ALBIR, Amparo, Ibid., p. 108.

على المترجم الفوريّ ابتكار الشعر أو النثر باللغة الهدف خلال بضع لحظات، إلّا إن كان شاعرًا بنفسه وسريع الابتكار، لذلك يستمع المترجم الفوريّ إلى الشعر أو النثر ويكتفي بنقل المعنى.

إذًا، بين الأمانة والخيانة، بين الجمال والقبح، بين المعنى والمبنى، بين الإلتصاق بالنصّ أو الخطاب المصدر والتحرّر منه، وبين الممكن والمستحيل، كيف يمكن خلق توازن أمين وجميل ومبدع في آن؟

تعدّدت النظريات في الترجمة وصولًا إلى نظرية دانيكا سيليسكوفيتش (Danica Seleskovitch) وماريان لودورير (Marianne Lederer) وهي النظرية التأويليّة في الترجمة *La théorie interprétative de la traduction* والتي تنطبق على الترجمة الأدبيّة. صحيحٌ أنّ المعنى يقع في صلب النظريّة التأويليّة في الترجمة، غير أنّها تسلّط الضوء أيضًا على أهميّة الشكل كعنصر أساسي، إذ إنّ الشكل يشارك في ابتكار المعنى. إضافة إلى ذلك، على الترجمة أن تحمل الوقعَ نفسَه والسحرَ نفسَه إلى القارئ. في هذا الإطار، ونظرًا لأنّ المبنى يشكّل عنصرًا أساسيًا في الترجمة الأدبيّة، على المترجم أن يكون حريصًا على نقل المعنى كما المبنى لكي تكون ترجمتُه أمينة وجميلة في آن. بالتالي، لا بدّ من القول إنّه من الممكن وغير الممكن في آن فصل المعنى عن المبنى (dissociables et indissociables) في الترجمة الأدبيّة، وهنا أهميّة دور المترجم في خلق التوازن أثناء ابتكاره لهذه التحفة الجديدة التي تراعي الأمانة والجمال. من خلال تحليل عدد من التسجيلات للترجمة الفوريّة، استنتجت لودورير (Lederer) أنّ "وحدات المعنى هي نتيجة توليف بعض الكلمات الموجودة في الذاكرة الفوريّة والاختبارات أو الذكريات المعرفيّة فيما تتلقّى الذاكرة الفوريّة الكلمات اللاحقة وتحتفظ بها لبرهة، بانتظار توليف جديد وابتكار وحدة جديدةتُضاف إلى تلك الموجودة في الذاكرة المعرفيّة"[٣٤].

[34] *"Les unités de sens sont le produit d'une synthèse des quelques mots qui se trouvent dans la mémoire immédiate et des expériences ou des souvenirs cognitifs tandis que la mémoire immédiate accueille et conserve un instant les mots suivants, jusqu'à une nouvelle synthèse et à la création d'une nouvelle unité qui va s'ajouter à celles que contient déjà la mémoire cognitive".*
SELESKOVITCH, Danica, LEDERER, Marianne, Interpréter pour traduire, Publications de la Sorbonne, Didier Erudition, 3° ed., Paris, p. 252.

في هذا السياق، يطبّق فورتوناتو اسرائيل (Fortunato Israel) مراحل النظريّة التأويليّة الثلاث (الفهم - فصل المعنى عن المبنى - إعادة التعبير) (la comprehension – la déverbalisation – la réexpression) على الترجمة الأدبيّة، ويعتبر أنّه على المترجم نزع قدسيّة الأشكال الأساسيّة التي ما عادت تُعتبر غاية بحد ذاتها إنّما وسيلة تقترن بالفكرة من أجل إنتاج الوقع الذي بات يشكّل، بتعريف غير لفظي، الرهان الحقيقي والهدف النهائي لعمليّة النقل؛ وهو الذي يشدّد على إعادة ابتكار النصّ *recréation* من خلال تبنّيه *appropriation*، الأمر الذي يصبّ في قلب موضوعنا، وهذا ما يسمّيه بـ "الترجمة – إعادة الإبتكار"[٣٥] *traduction – recréation* ممّا يجعل من المترجم "مبتكرًا" *traducteur – créateur* لنصّ جديد.

التوفيق بين الممكن والمستحيل

في التوفيق بين الممكن والمستحيل، لا شكّ في أنّه من الممكن ترجمة النصوص الأدبيّة بشكل **أمين وجميل ومبدع** في آن.

في موضوع الأمانة، يقول أندريه جيد(Andre Gide) إنّه في البداية، كان يطلب أن يرى ترجمة أعماله إذ يبدو له أنّها الطريقة الفضلى التي تضمن عدم الابتعاد عن النصّ، غير أنّه سرعان ما أدرك خطأه، وبات يطلب من المترجمين ألّا يعتبروا أنفسهم أبدًا عبيدًا لكلماته وجمله، غير أنّه يضيف أنّ هذه النصيحة لا تصلح إلّا إذا أدرك المترجم جيّدًا موارد لغته واستطاع الولوج إلى روح الكاتب وأحاسيسه، بذلك تكون ترجمته مطابقة للأصل[٣٦].

[35] *"Je crois que toute traduction doit être une recréation… traduction et créativité doivent au contraire aller ensemble"*.
ISRAEL, Fortunato (1991), Traduction Littéraire: L'Appropriation du texte, in Lederer, Marianne et Israël, Fortunato, eds, La liberté en traduction, Paris, Didier Erudition, p. 31.

[36] *"Dans les premiers temps, je demandais que les traductions de mes oeuvres me fussent soumises, et celle-ci me paraissait la meilleure qui suivait de plus près le texte français; j'ai vite reconnu mon erreur et, à present, je recommande à mes traducteurs de ne jamais se croire esclaves de mes mots, de ma phrase, de ne pas rester trop penchés sur leur travail… Mais, encore une fois, ce conseil n'est bon que si le traducteur connaît admirablement les ressources de sa propre langue et qu'il est capable de pénétrer l'esprit et la sensibilité de l'auteur qu'il entreprend de traduire jusqu'à s'identifier à lui"*.
Divers. Les Essais 3 (1931), Gallimard, Paris, p. 196.

وفي موضوع الجمال، كثيرون هم من ردّدوا عبارة "الخائنات الجميلات" *Les Belles Infidèles* وعلى رأسهم جورج مونان (Georges Mounin)، في هذا الإطار، لا بدّ من الإشارة أيضًا إلى مثل تركي

(*"Çeviri kadma benzer, güzeli sadık olmaz, sadık olanı güzel olmaz!"*)

مفاده أنّ الترجمة تشبه المرأة، إذ عندما تكون جميلة تكون خائنة وحين تكون قبيحة تكون أمينة – وهنا طبعًا لا نوافق على هذا المثل – لكن هل من الضروري أن يكون كلّ جميل خائنًا؟ وهل هي خائنة كلّ ترجمة جميلة تضع المعنى في المقام الأوّل إنّما تعطي الشكل رونقًا خاصًا؟ في هذا الإطار، يقول رينيه إتيامبل (René Étiemble) إنّ "ما يصعب نقله وترجمته لا يكمن في العنصر اللغوي بل في الجمال الذي تتحلّى به الجمل"[٣٧].

وهذا ما يعني نقل المعنى الحقيقي بفرادة وإبداع *originalité*، ونقل ذاك السحر والجاذبيّة التي تخطف أنفاس القارئ أحيانًا وتنقله إلى عالم الجمال والخيال. في هذا الإطار، نذكر قول أنطوان دي سانت-أكزوبيري (Antoine de Saint-Exupéry) في روايته الشهيرة "الأمير الصغير" *Le Petit Prince*: "وحده القلب يجيد الرؤية فالجوهر يخفى على العين" *"On ne voit bien qu›avec le cœur. L' essentiel est invisible pour les yeux[38]"*.

إن كان الجوهر في الحياة لا يُرى إلّا بالقلب، فجوهر الشعر والنصّ الأدبي لا يُرى إلّا بالحسّ الشعري والقدرة على الغوص في كلّ مضاميره وسبر كلّ أغواره، وبالتالي ابتكار تحفة جديدة تضاهي الأصل جمالًا وروعةً وإبداعًا. أخيرًا نصل إلى مزج الأمانة والجمال، أي الإبداع!

في خضمّ المصطلحات القديمة الجديدة، ما بين الحرفيّة التي تقضي على المصدر والحرية التي تحافظ على الأمانة والجمال، وبين العبارة الإيطالية الشهيرة *traduttore-traditore* وعبارة *Les Belles Infidèles*، وإلى جانب كلّ ما "يُتّهم" به المترجم على أنّه "خائن" و"غير أمين"، ها نحن ننقض كلّ هذه الاتهامات ونفتح آفاقًا جديدة تعطي المترجم حقّه، غير أنّنا في الوقت نفسه نحذّر المترجم من الوقوع في الخطأ.

[37] *"Ce qui est difficile à restituer, à transposer, à traduire, ce n'est presque jamais le fait linguistique, c'est la part de beauté que comporte une phrase"*
ETIEMBLE, René (1968), La traduction est-elle un art ou une science? p.5.

[38] *"On ne voit bien qu'avec le cœur. L'essentiel est invisible pour les yeux"* .
DE SAINT-EXUPERY, Antoine (1943), Le Petit Prince, éd. Gallimard jeunesse, coll. " Hors luxe " , p. 72.

على المترجم – الشاعر – الكاتب أن يدرك أنّ لحرّيّته حدودًا، غير أنّه يمكن لهذه الحرّيّة أن تلاقي حرّيّة الشاعر الأساس بطريقة أو بأخرى. وهنا تكمن القدرة على الإبداع! بين الممكن والمستحيل، قد يكون المستحيل ممكنًا. فوفقًا لـ بيتر روبنسون (Peter Robinson): "الصعوبة هي ما يمكن القيام به فورًا؛ أمّا المستحيل فهو ما يتطلّب وقتًا أطول"[٣٩].

نعرض مثالًا من كتاب ميشال حايك عن القديس شربل بعنوان *Le Chemin du Désert* *Le Père Charbel Moine d'Orient*، حيث ترجم حايك أغنية قديمة للأستاذ الراحل وديع الصافي إلى الفرنسية على الشكل التالي:

"ورحت أنا لعندكن قبل العشا بنتفي،
ولقيتكن نايمين وسراجكن مطفي،
مديت إيدي عالحبق لأقطف أنا قطفي،
صاحت بنت اللكن: يمّا يمّا يمّا حراميّة!"

" Je suis passé par votre demeure, le soir, un peu après dîner
Et je vis que vous dormiez déjà car votre lampe était éteinte.
Je tendis la main à la marjolaine de la fenêtre pour en prendre une brindille,
Et voici la fille qui est vôtre qui crie : Maman. Les voleurs !"

تجدر الإشارة إلى أنّ حايك استخدم كلمة marjolaine التي تعني المردقوش عوضًا عن basilic أي الحبق.

كما سبق وذكرنا، نحن ندرك صعوبة ترجمة القصيدة بشكل فوري، إنّما الهدف من عرض هذه الأمثلة هو إبراز إمكانية الترجمة بشكل أمين وجميل ومبدع.

نعرض أيضًا جزءًا من ترجمتنا لقصيدة

Il pleure dans mon cœur – Paul Verlaine.

[39] "The Difficult is that which can be done immediately; the Impossible that which takes a little longer".
SANTAYANA, George (2007), cited in James Geary (ed.), Geary's Guide to the World's Great Aphorist (London: Bloomsbury), p. 347.

يا دمعَ قلبي	Il pleure dans mon cœur
يا مطرَ المدينة	Comme il pleut sur la ville;
أيُّ وهنٍ هذا	Quelle est cette langueur
في نفسيَ الحزينة؟	Qui pénètre mon coeur?
يا مطرًا ناعمًا	Ô bruit doux de la pluie
على الأرض وعلى السطوح	Par terre et sur les toits!
ما لقلبيَ المجروح	Pour un coeur qui s'ennuie,
سواك من يغنّي!	Ô le chant de la pluie!

إذا كنتم تتساءلون عن الأمانة "للكلمات" فأقول إنّنا نقلنا "المعنى" بشكل أمين وابتكرنا نصًا جميلًا وحرصنا على نقل الوقع نفسه في اللغة العربية.

خاتمة:

بين الممكن والمستحيل، ما مِن ترجمة مستحيلة في المطلق. بالتالي، يمكن ترجمة النصوص الأدبيّة بشكل أمين لا يحدّ من الجمال، وبشكل جميل لا يحدّ من الأمانة، وهنا روعة المزج بين الأمانة والجمال، أي: الإبداع! ولكي يتمكّن المترجم من ترجمة النصوص الأدبيّة بشكل أمين وجميل ومبدع، عليه أن يكون بدوره كاتبًا وشاعرًا ليتمكّن من ابتكار تحفة جديدة تتّسم بالإبداع. فما يرسخ في ذهن القارئ هو ذاك المعنى، وما يترك أثرًا في نفسه هو ذاك الوقع الجميل والمبدع. وهذا ما يذكّرنا بتعريف أمين نخله للشعر: "الشعرُ قناةٌ لاحَ لكَ فيها البحر".

فأي بحور تلوح لنا في النصّ الهدف كما المصدر؟

بالتالي أن يبتكر المترجم جديدًا، يُترجم بعبارة توصّلنا إليها لما تلخّصه في مجال ترجمة النصوص الأدبيّة وهي عبارة الجميلات الأمينات "*Les Belles Fidèles*". إذًا، يمكننا القول إنّ ترجمة النصوص الأدبيّة ليست بالأمر الجديد، غير أنّ الجديد يكمن في مقاربتنا لمفهومَي الأمانة والجمال وكيفيّة تطبيقها على ترجمة هذا النوع من النصوص. وهذا ما يفرض على المترجم أن يكون:

- أمينًا للّغة والثقافة المصدر ومراعيًا للّغة والثقافة الهدف
- أمينًا لسحر النصّ المصدر ووقعه وجماله وإيقاعه
- دقيقًا في نقل المعنى

- ذكيًا في صياغة الجمل والتعابير
- خلّاقًا في نقل الصور ولو بطريقة مغايرة إنّما تحترم الأصل من حيث المعنى
- فنّانًا في نحت الكلمات التي قد لا تنطبق بالضرورة وكلمات الأصل
- مبدعًا في ابتكار تحفة جديدة أمينة للأصل
- قريبًا من النصّ المصدر وبعيدًا عنه في آن
- أديبًا وشاعرًا مبدعًا!

أمّا المترجم الفوريّ فلا بدّ من أن:

- يتقن اللغتين المصدر والهدف
- يصغي جيّدًا وينقل المعنى بشكل دقيق
- يتمتّع بمهارات تحليلية ومعرفية
- يتغلّب على التوتّر
- يتمتّع بذاكرة قوية ويتقن تدوين الملاحظات
- يتمتّع بالصبر وسرعة البديهة
- يتحدّث بلباقة وبإلقاء جيّد وصوت جميل

إن أفرط المترجم في أمانته الحرفيّة، لا شكّ في أنّ عمله لن يلقى أي إعجاب في العالم الهدف، وإن بالغ في التصرّف، قيل إنّه ابتكر نصًا جديدًا لا يحترم الأصل. لذا وجب على المترجم أن يكون أمينًا في تصرّفه ومتصرّفًا في أمانته، وهنا جمال التوازن.

أخيرًا، يمكننا القول إنّ الترجمة الجميلة تدفعنا إلى القراءة، والترجمة الدقيقة تنقل الأفكار بشكل واضح، والترجمة البسيطة تمكّننا من الفهم من دون بذل أي جهد.فكيف إن اجتمع الجمال والدقّة وبساطة التعبير في ترجمة واحدة؟

بالتالي، إنّ الترجمة ليست مجرّد تقنيّة أو نظريّة بل هي فنّ متنوّع كالرسم ومبدع كالموسيقى. وكما في عالم الموسيقى، على المترجم أن ينقل إيقاع النصّ في حركته وسكونه (حركة وسكون).

في النهاية، ونظرًا لأنّ الترجمة علم وفنّ أيضًا، نخلص إلى القول:

فلتكن حياتنا ترجمةً لفنّ الحياة...

Traduisons dans nos vies le bel art de la vie...

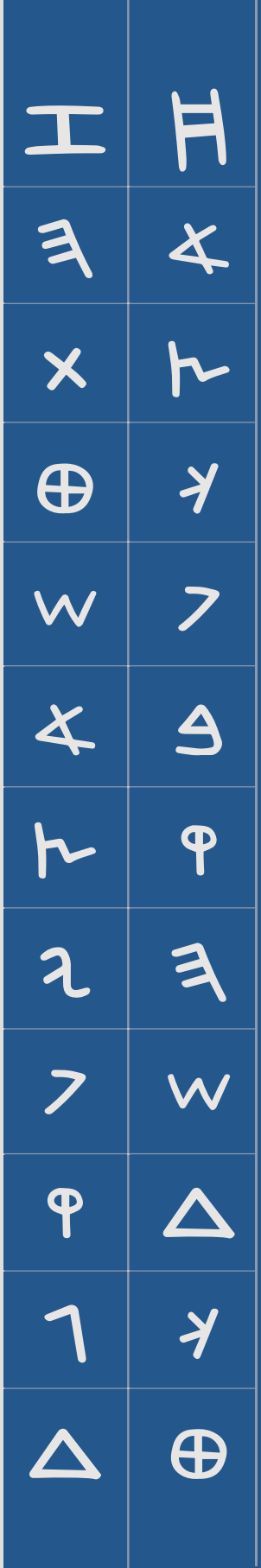

ISBN: 978-9953-9032-8-6